مُنايَ
فايز غازي

مُـنــــــــايَ

فايز غازي

اسم الكتاب: مناي
اسم المؤلف: فايز غازي
الطبعة الأولى: جميع حقوق الطبع محفوظة 2013
الناشر: دار ابعاد
العنوان: لبنان - بيروت - شارع الحمرا - بناية رسامني - الطابق 4
هاتف: 751541 - 1 - 961+ / 341622 - 71 - 961+
Email: abaadpress@gmail.com
website: www.abaadpress.com
التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع
العنوان: لبنان - بيروت - شارع الحمرا - بناية رسامني - الطابق سفلي أول
ص.ب: 113-6432 بيروت - لبنان
هاتف: 750054 - 1 - 961+
فاكس: 750053 - 1 - 961+
Email: info@alfurat.com

فايز غازي

مُنـــايَ

روايـــــة

دار أبعاد
الطبعة الأولى
2013

عيونك اللحظة شاخصةٌ إليّ...
تنزلين كنسائم الفجر من عباب الليل...
تُبعِدين نعاس العمر بشفتيك...
تقبلين طيفاً انتحرت أجزاؤه على سرير الزمن...
ترتمين في أحضاني، وما الأحضان إلا فراغ...
فراغٌ ضاق العمر منه... ومضى...

مقدمة

معنىً جديدٌ للحياة

هاني الحلبي *

يُطلق فايز غازي روايته الأولى بعنوان «مُنايَ»، الصادرة بطبعتها الأولى عن دار أبعاد في بيروت، وهي بكر إصداراته وتفاحة معاناة جيل نابض بروح وثابة.

التمعتْ في «مُنايَ» جذوة الحب، قلق الصراع، روح الشباب، عزم التحدي، وطأة الأعراف التي كلّست الروح، التدين الذي اغتال «الكتاب»، توق الانتماء للخالق المخلوق في وحدة وجود، عدوان إسرائيل التي دأبت على قصف ما بنيناه أعماراً وبيوت حنين وزوايا ذكريات وأماني، تتوّجها روح مشرقية تصر على «إثمها» الكنعاني التاريخي مدى العصور فتنغرس في ترابها في عَودِ فرع إلى أصل لتورقَ مقاومة شعراً وروايات وبطولات إنسانية باهرة...

«مُنايَ» فايز غازي في روحها ومعاناتها، في منطلقاتها ومآلها، هي نفسها «مُنايَ» جيل جديد تدشّن مع سرب شعراء ورواة وقاصّين، منذ حوالى سبعة عقود، جسرَ عبور نحو أدب جديد يخطّ جلجلته معمَّداً بالحبر والدم، بالدموع والأنين والوجع، بالغربة ووهم الحضور الغياب، في مواجهة أدب عُري وجنس يتوسّل لغة سافلة إباحية، أدبٍ تافه يزيّن الضياع والتشوش مغرقاً في شرنقة فردانية ويأس ينزلق إلى عدمٍ وتهجير روحي مؤداه أننا ذو دونية قومية وفراغ فني ملتبس.

تعبق روح المؤلف في بطله الشاب القلِق المتردد المتحدي المتولّه الأدوني، بالحب جائعاً لروح أنثى تكامِله في إبداع نسغ وتلاقح وجود مقدماً معاناته أن «إذا ارتأت الأقدارُ شيئاً فلا بد منه...»، مدعماً «فرضيته الفلسفية» بسطوة قدر رغم قوله «صغيرةٌ آفاقنا ولكن عظيمةٌ تطلعاتنا...» إقراراً بالتحدي والصراع وقدرة الانتصار.

تلاقي تلك الروح روح عشتارية دافئة تدفق نبضاً وحرارة وجمالاً خالقة حياةً، مخلوقة بحبّ وحيد وله، إن افتقدتْه مرة يبست كصخر حرمون

لأبـد الدهـر. تفيـض اندفاعـاً تتوهـج تضحيـة وعناقـاً، هـي نفسـها معيـار هـذه الروايـة وملهمتهـا وسـيدة وحيهـا الجميـل... ثنـائي أدون – عشـتار في وحـدة تكامـل تنسـج الحيـاة الحيـاة.

.. مازالـت علاقـة البطلـين ملتبسـة بـين الصداقـة والحـب، لكنهـا حميمـة بمقـدار، حتـى كان العـدوان امتحانـاً... بـدأت الحـرب... فجّر الرحيل أسـئلة الـذات والهوية والانتـماء.. صرخـت بطلـة «مُنـايَ» «لمـاذا أرحـل؟ لمـاذا أهاجـر؟ لمـاذا تهاجمنـا «إسرائيـل» ونحـن نرحـل والمسـتوطنون يبقـون؟ لم أعـد أريـد وطنـاً كهـذا، أرضـاً كهـذه، قـدراً كهـذا،... أريـد أن أصنـع قـدري بنفسـي، أريـد أن أحيـا حيـاةً ملـكي». حاولـت اقتـلاع الوطـن. لكنـه عـصي، رغـم تهافـت وجداننـا القومـي كشـعب لـولا نـدرة نـذرت نفسـها لإيقاظـه. فعـادت تقبّـل الـتراب والأشـجار والأرصفـة بحـب وطـن قلبهـا - الحبيـب.

جرفهـما الحـب.. لم يوقفـه صراع متوهـم بـين عقـل «ينادينـي للتوقـف، وقلـب سـائر بـلا هـوادة!». حتـى لفهـما الحـب بدفئـه المبـارك...

لمـا هبطـا إلى العـالم الأرضي بـدأ سـؤالُ الأسرة والحنـين للعصافـير يأخذهـا في سـيرورة بشريـة «أسـأصبح يومـاً زوجتـك؟». أجـاب «أنـت تعرفـين الموانـع والحواجـز». و»القلـب يجمعنـا والعقـل يفرقنـا، العشـق يجمعنـا والتقاليـد تبعدنـا، الشـغف يجمعنـا والمجتمـع يقتلنـا!...». ليصبـح الـصراع بـين سـماوية الحـب والخبـث الأرضي، بـين إلهيـة الديـن وفسـاد متدينـين يعيشـون في الأرض كفـراً وقتـلاً وهتـكاً.

وبـين توهّـم البطـل الصـدق في خضوعـه لسـطوة المتدينـين عـلى حسـاب الديـن القتيـل وبـين تمسـكه بحبـه، ولـو في كـوخ قـصي سريّ إكسـيراً لجـوع الـروح، قبلـت فتـاة «مُنـايَ» ان تكـون شـهيدة حـب حطّمهـا حتـى الشـلل في فـراش منـذورة لقلبهـا وحلمهـا.

كاد البطـل ان يكـون ثلمـة في الرجولـة لـولا حبـل صرة أخـير أنقـذ حبـه فيـه بعـد فـوات الأوان «هـذه الفتـاة كانـت وسـتبقى «مُنايَ».

تؤكـد «مُنـايَ» أننـا شـعب حـي يمكنـه أن يعجـن أقـداره، أن يختـار، أن يصحّـح مفاسـده، أن يثـور عـلى طغاتـه ومفسـديه، بـأي زيٍّ تزيّـوا، أن يبـدع حقـاً وخـيراً وجـمالاً، إذا أدركنـا مـن نحـن ومعنـى هويتنـا وسر وجودنـا فنتحـرر ونـضيء.

*** ناشر موقع haramoon.org وباحث**

الفصل الأول:

الأمس

الحب...

كلمة تغتصبها ألسنتنا في كل وقت...

حرفان يختصران المعجم... نزيّف بهما ونتزلّف..

يرقصان على شفاهنا بسهولة... حتى باتت الكلمة من غير عنوان وعناوينها من غير معنى...

على ذلك المقعد الرمادي اعتدنا الجلوس... حينما كان الحب حباً... يرنو بنا نحو السماء... إلى الذات الإلهية يجمع ما بين قلبين فرّقهما الطين يوماً...

كنا، أنا وهي...

اثنان من عالمين مختلفين... تقاليدنا متباعدة... أفكارنا

متناقضة، حتى اللون الأسود في عينينا كان متضاداً!

جمعنا القدر في الجامعة سوياً...

فتاةٌ في ربيع العمر تأنى الخالق في رسم تفاصيلها، وأغدق عليها من نوره نوراً...

إذا ضحكت كأن النرجس تفتح في البراري، وإذا مشت كأن النور له أقدام. سحرها واحةٌ غناء تفيء إلى ظلالها أرواح الجميع وعيونهم، لكأنك في حلمٍ ولكنه حلمٌ شاخصٌ أمامك!

إذا ارتأت الأقدار شيئاً فلا بد منه...

مهما حاول المرء تغييره أو تعديله، فلحركة القدر بوصلةٌ رهيبة، كيفما لففت في الدنيا تبقى البوصلة ثابتة، تشير للشمال، شمال القلب أم شمال العقل... لم أعد أدري فما كان القدر قدري بل كان يهزأ بي...

ذاك القدر جمعنا على مقعد رمادي، تبادلنا سخف الكلام، تكلمنا بتوافه الأمور، لم تقل ما يدهشني ولم أقل ما يلفتها، ولكننا جلسنا مطولاً، من دون سبب واضح، فقد كنا معاً سبباً لتسلية القدر... وأغدق الوقت علينا...

كررنا الجلوس على ذلك المقعد يومياً، من دون سبب ظاهري... قد يكون الإعجاب سكن بيننا ولكنه يبقى نظرة سطحية أولية كبوادر الضباب على جليد الجبال، صنع من ماء وغبار فلا تستطيع تمييز نضارة ما بداخله، أكانت اخضراراً أم اسوداداً...

فالصـورة تبقـى رماديـة إلى أن ينجـلي هـذا القنـاع الخارجـي...

جميلـةٌ بالخَلـق، عفويـة بالطبـع، عنيـدة بالتربيـة، عنفوانهـا لأشـدّ مـن الطيـور الجارحـة، طيبتهـا لأرقّ مـن هديـل الحـمام. كتلـةٌ مـن المشـاعر والافـكار المتضاربـة، ضيـاعٌ في جسـدٍ واحـدٍ وتيهـان في روحٍ متمـردةٍ واحـدة.

- «صبـاح الخير صديقتي...».

- «صباح الخير...».

- «أتدريـن... جمالـك نعمـةٌ مـن اللـه أو تكويـنٌ جينـيٌّ دقيـق، لكـن في كلتـا الحالتـين النتيجـة مذهلـة...».

- «دع كلامـك الرقيـق جانبـاً، فمثـلي لا تؤثـر بهـا الكلـمات... إذا كان الجسـد مـن غـير صنعـي فعقـلي وإدراكي مـن نسـج يـديّ!».

- «هـذا ليـس كلامـاً رقيقـاً، هـذا وصـفٌ بـدائي لحالـةٍ عكسـتها العـين في العقـل...».

- «العـين تعكس صورتهـا في القلب يا صديقي!...».

- «ربمـا... لكن قلبـي لا زال يخفق ببطء...!».

ضحكنا وتناولنا الابتسـامات غذاءً، تسـامرنا وتناقشـنا...

حدثينـي عن طفولتك!...

- «ترعرعـت في قلـب الزمـان، في قريـةٍ تضـج بالحيـاة والنقـاء، يمتـد اخضرارهـا لنهايـة الأجفـان، تـزدان بالقرنفـل ربيعـاً وتتوسّـد الثلـوج

أكتافها شتاءً...

كنا نلهو في الحقول، نلعب ونضحك وإذا ما حل التعب بنا افترشنا ترابها ونظرنا إلى سمائها، نكتب بأناملنا على هوائها أحلاماً وأماني، وفي المساء نعود إلى المنزل، نغوص في فراشٍ من الحب والدفء... حرارة المكان تزيح هدوء الظلام وتنسج هالةً من الطمأنينة...».

أما طفولتي يا صديقتي...

- «كانت مزيجاً من الدلع والولع: ولع بالمحظور ودلعٌ عند العقاب!

ألهو وأصدقائي في كل مكان لكأن الأمكنة ملكنا، نصنع من سطوح المنازل بيادر نقفز من بيتٍ لبيت، نطارد شيئاً في أوهامنا، نطرد الخوف من نفوسنا، نحاول قتل المستحيل، نحلم بالغد، بشرفةٍ على كتف وادٍ، بمنزلٍ يجمعنا كلنا لنبقى نلعب من دون إزعاجٍ من أحد!».

- «كل الأطفال يفكرون هكذا...».

- «كانت أياماً جميلة، بريئة، هادئة...».

- «أتدري يا صديقي!... في بداية العمر تكون كل الأشياء صغيرة ولكن عظيمة جداً!».

- «وكيف هذا؟».

- «صغيرةٌ آفاقنا ولكن عظيمةٌ تطلعاتنا...

صغيرةٌ أناملنا ولكن عظيمةٌ أيدينا...

صغيرةٌ أجسادنا ولكن عظيمةٌ نفوسنا...».

- «ولكننا كبرنا الآن وأصبحنا أنضج!».

- «ربما... كبر العمر بنا، ولكن ما زلنا نحنّ لتلك الطفولة، يوم كان المستحيل أسطورة... أما الآن، وفي بلد كهذا. الممكن يضحي مستحيلاً!»...

- «أنتِ محقة ولكن علينا ألا نيأس، فالغد نصنعه بأيدينا...».

- «أيدينا أدوات إجرامية، صنعت من الباطل صنماً ودعت كل الأديان لعبادته، فعبدوه... تراهم باسم الدين يقتلون ويذبحون ويكفرون..

اليد التي تسلّم على امرئ اليوم... هي اليد نفسها التي تغدره غداً، قد تقتله ولكنها تقتله وتقتل أطفاله وأحلامهم ومستقبل هذا الوطن...».

...

يتداعى الوقت معها...

الساعات تصبح دقائق معدودات...

مع تقادم الوقت أضحينا نتكلم بكل المواضيع: نجول بالقضية من القدس إلى الأحواز.. بالحبّ من ليلى إلى بلقيس، بالسياسة، بالفكر، بالفلسفة،...

رويداً رويداً بدأت نظراتنا تتعانق للحظات حتى إذا ما أحست بالدفء تنفلت خجلةً، نتبعها بابتسامة ونكمل الموضوع كأن لحظة الشرود هنيهة من خارج الزمن ولغير مكان كهذا!...

وكيف تكون ونحن في بيئة ركنت إلى المسلّمات وآنست الركود، في وطنٍ حكامه أمراء حرب، ومثقفوه وأقلامهم أجراء عندهم، في وطنٍ ضاع الإنسان بين دفاتر الحرب، وثأر «الزعيم» وسطور الدماء،... حتى الدستور والقانون، اسمان من دون مضمون، من مسوّدةٍ قديمة طواها النسيان في التاريخ وبقيت حاضرة في وطني!

في وطني القانون الوحيد هو «اللا قانون»، فليس هناك قانون لشيء وإن وجد فهو غير مطبق، وإن طبق على أحدهم فسينشله منه زعيمه، أو رئيسه...

بلادٌ تحكمها شريعة الغاب بعامة، ولكن المفارقة هي أنها ابتدعت قوانين للعلاقات الإنسانية لتزيد التشرذم والتفسخ في المجتمع!...

قسموا مجتمعنا وفصّلوه على قياسهم، ليبقى الزعيم زعيماً ورجل الدين سليطاً متسلطاً...

إذا أحبّ اثنان بعضهما وأرادا الزواج، فهناك مخاضٌ عسير عليهما أن يمرا به:

هل الدين يسمح؟ وإذا سمح هل العشيرة تقبل؟ وإذا قبلت، هل العائلة ترضى، وإذا رضيت، هل... وهل... وهل...

وإذا كان الاثنان من دينين مختلفين فهناك الكارثة...

حتى الدولة تقف ضدهما فيضطران للسفر إلى الخارج ليتزوّجا...

دولةٌ تآمرت مع ساستها ووكلاء الله الحصريين على الأرض من أجل تفريق الإنسان عن أخيه الإنسان، لا لهدف في الآخرة بل لكرسي وسلطة في الدنيا...

ويتنافقون في حب الله وعباده وهم منهم براء...

الفصل الثاني:

الوداع الأول

روايـات الحب لا تبدأ بلقـاء وتنتهي بوداع،
ففيهـا لقـاءات ووداعـات كثـيرة... لكننـا دأبنـا عـلى روايـات الأسـاطير حيـث الحـب مـن نظـرة والـوداع مـن دمعـة...!

شـاء القـدر أن تشـتعل الحرائـق في وطنـي: اغتيـالات، حـروب... شـمالاً، جنوبـاً، سـاحلاً وجبـلاً، تتنقـل في حقـل ألغـام متنقـل...
لا تدري إذا خرجت صباحاً إن كنت سـتعود مسـاءً...
سـيارات مفخخة على الأرض...
طائرات حربية في السـماء...
والناس تمشي... ونمشي...

- «بـدأت الحرب يا صديقي...».

- «نعـم... ومـا عسـانا نفعـل... أنحـن مـن بدأهـا؟ لطالمـا كنـا الحـبر والدفـتر... بحـبر دمائنـا يكتـب الغربـاء عـلى صفحـة وطننـا... وتتمـزق الأوراق!...».

- «سأسـافر إلى أختـي... فمنزلنـا قـد يتدمّـر كالعـادة!... واذا لم يدمـر فـلا نسـتطيع البقـاء فيـه...».

قالتهـا والعـين تنـزف، دمـاء كبريائهـا تعتصرهـا مقلتاهـا، فهـي لم تتعـوّد الهـرب، لكـنَّ أباهـا يخـاف عليهـا مـن غـدر الحـرب ومكـر القـدر...

ودّعتُهـا بصمـت، لم أعانقهـا، لم أقبّلهـا، لم تبـكي عـلى كتفـي، لكـن الهـواء بـين عينيهـا وعينـي نسـج جـسراً مـن الأحـرف والكلـمات... ومضينـا...

- «سأسـافر هـذا المسـاء، فـأبي يخـشى أن يُقصـف المطـار مـع نشـوب الحـرب...».

- «لا أظـنّ أن هذه الحرب ستسـتمر طويلاً...».

- «في وطننـا يـا صديقـي، لا يمكـن أن نعـرف إذا كانـت ستسـتمر أو سـتنتهي، فـما نحـن إلا لوحـة سـوريالية تمتـصّ الألـوان السـوداء مـن ريشـة رسـام لا نعرفـه، وإذا عرفنـاه مـا زادتنـا المعرفـة شـيئاً...».

- «انتبهـي لنفسـك، ولا تدعـي الغربـة تسرقـك مـن وطنـك وأهلـك...».

وددتُ لـو قلـت لهـا «... منـي»، ولكننـي لسـت سـوى صديـق عـلى

لائحة طويلة لا أعرف ترتيبي فيها أصلاً...

- «وأنت كذلك، الحرب لئيمة فانتبه لنفسك...».

إلى اللقاء أو وداعاً... ما عدتُ أذكر...

انطلقت الطائرة من مطار بيروت في العاشرة مساءً، نظرت إلى السماء، هناك طائرة، أظنها على متنها، لا أعرف بما شعرت، ولكني أحسست بأني سأشتاق إليها، لا لأنها صديقتي وليست بحبيبتي! مكانها يتأرجح بين الاثنتين، وبذهابها لن أعرف من تكون وماذا ستكون!...

آلاف الأسباب للوداع، تجمعها رياح الزمان على بيادر الوطن تذريها وتوزعها علينا، ولكل امرئ في وطني صنفٌ من الوداع ومرارة بطعم مختلف!...

الفصل الثالث:

في الغياب

يحتـاج الإنسـان إلى لحظات من الوحدة...
يشـذب أغصان ماضيه اليابسة...
يتفكـر فيهـا، كيف كانت ولما زالت!...
يجمعهـا في النهايـة، ويحرقها في موقدة النسـيان...
يبقـى رمادهـا ذكرى في أقبيـة القلب، والرائحة لا تزول!...
يعتنـي بأغصان الحاضر...
يحـاول جاهـداً الاهتمام بها، فزهور الغـد تعتمد عليها..
وكـم مـن غصـنٍ اعتنينـا بـه ولم يزهـر... وكـم مـن غصـنٍ أحرقنـاه ونبـت مـن رمـاده ضلـعٌ جديـد!...

مـرّ شـهرٌ عـلى غيابهـا، لم أعـرف إذا وصلـت أم لا، لكنـي عرفـت أن بيتهـم تهـدم جـراء غـارةٍ جويـة...

لقد كتب القدر عمراً جديداً لهم، فقد أعلمهم الزمان بمغادرة المكان... واستمروا...

لم تستمر الحرب كثيراً. استمرت شهراً ونيّفاً، لم يكن في هذه الحرب شيء جديد إلا النتيجة: فالدمار نفسه، والدماء نفسها، ولكننا خرجنا لأول مرة من سخافة مقولة «قوة لبنان في ضعفه»!...

مر عامٌ على غيابها، لا تواصلَ، لا رسائلَ، أعرف أنها في فرنسا، ولكن أين الدروب وأين سالكوها؟!...

جمر الشوق إليها لا زال كما هو، أسأل نفسي لماذا والحيرة تجيبني ولا جواب على السؤال!...

أتخبّط بين أسئلةٍ قديمة تنبع من ذاكرةٍ قصيرة، وأسئلة جديدة تفيض من شوقٍ متجدّد، متجذّر في اللاوعي. أضيع بين الكلمات والاستنتاجات، وكلما أحسست بأنني حللت اللغز أراني في لغزٍ أكبر، كأنها لعبة ارادها القدر لي او معضلةٌ، حلّها لن يكون بهذه البساطة!

مر عامان على غيابها، وأنا كما أنا... ثلاثة، ولا زالت في مقدمة البصر... أربعة، وكأنها الآن تحضر...

خبأت جمرها في الفؤاد، هناك حيث الدماء لا تجري في البقعة النابضة، فيوماً ما ستعود، وإذا عادت فسأراها، وإذا رأيتها فسأحاول أن أجيب على أسئلة حيّرتني لسنوات عدة!...

الفصل الرابع:

العودة

ليس غريباً أن تسمّى بعض المواقع الإلكترونية بمواقع التواصل الاجتماعي، فهي تصل ما بين الناس، تسخر من المسافات، تريحك من شوقٍ يعتصر وتخفف عنك آلام البعاد...

تجعلك في لحظةٍ واحدة متواجداً في الشرق والغرب، هنا وهناك، حتى لتظن أن نافذةً على شاشة أضحت نافذةً على حياة إذا ما فتحتها رأيت الخلق أجمعين يتهادون تحت شرفتك!...

في أحد الأيام وصلتني رسالة عبر أحد هذه المواقع، تسألني:

- «أأنت من كنا سوياً في الجامعة منذ أربع سنوات؟».

أجبتها:

- «ألا زلت جميلة كما أعهدك...؟».

أجابت:

- «إنه أنت فلا زلت كما أعهدك!...

نعم، هكذا، ببساطة، بعد سنوات من اللاخبر واللاعنوان، تأتي رسالة بسيطة، عادية، تزيح الغبار عن دفتر الذكريات وتفتح على صفحةٍ قديمة، في أولها سطر أو سطران، بقيتها بيضاء، تنتظر أن يكتب عليها من جديد سطورٌ بطعمٍ آخر، بلونٍ آخر، فماضي الأمس ليس كحاضر اليوم...

كنت سعيداً أننا عدنا ووجدنا بعضنا، كان هناك أسئلة تحتاج إلى أجوبة، صورٌ تحتاج لإطار، كلمات تحتاج لنصٍ...
كان الرجاء بأن أجد أجوبةً مؤطرة في نصٍ واضحٍ تمسي انطلاقة أو تغدو حداً، فإما أن ترسم غداً جميلاً أو أن تنهي ماضياً محيراً، فذكريات الأمس لا زالت جمراً ولما تنطفئ بعد...

- «صباح الخير، كيف حالك يا صديقي القديم، ألا زلت كما كنت؟
ماذا فعل الزمان بك؟... أأبكاك؟ أأضحكك؟
هل مرت هذه السنوات بالسعد أو الحزن؟
هل طاردت أحلامك أم طاردتك كوابيسك؟
قل لي فلا زالت تلك اللحظات القديمة في جانبي...
اشتقت إليك...».

- «لا أدري ماذا فعل الزمان بي، فذلك لك لتكتشفيه...

مرت لحظات حزينة وأخرى سعيدة...

لا زلت أطارد أحلامي وكلما تحقق حلمٌ ارتسم حلمٌ آخر.

أكبر كوابيسي هو مجتمعنا الذي دأب على الاستهلاك، وإذا برز أحدهم يريد التغيير فيكون بعكس الزمان والمنطق، فلا زلنا نرى مستقبلنا في عصور الجاهلية!...

أما اللحظات التي ذكرتها فلا زالت خميرةً في القلب والذاكرة، تعيدك إليّ كل حين بابتسامة وأسئلة جديدة...

مر الوقت ظالماً لكن الشوق عدّل قسوته!

كم مضى؟ أربع، خمس سنوات؟

أين كنت؟ ماذا فعلت؟ لمَ انقطعت أخبارك؟».

- «أتذكر ذلك النهار حين تودعنا قرب المطار؟

لقد كنت حزينة ويائسة؛ لم أشأ المغادرة؛ كنت أريد البقاء في وطني...

نزفت من الدمع الكثير حينها، قبلت حجارة منزلنا وأمعنت النظر في زواياه...

كان لديّ إحساس أنني لن أعود لألقاه! تجوّلت في أركانه، على شرفاته، أحاول لملمة ذكريات طفولتي لأحملها معي:

في تلك الزاوية كنت أجلس إذا ما أنبني أبي،

على تلك الشرفة كنت أنظر للأفق وأحلم،

في هذه الغرفة كنت أصلّي مع أمي،...

آه يا صديقي من ذلك اليوم، حملت كل أشيائي وذكرياتي وآمالي، وضعتها في حقيبة السفر.. ومضيت...».

- «لماذا انقطعتِ عنا ولم تراسلي أحداً؟».

- «في الطائرة كان هناك شعوران يتصارعان داخلي:

شعور بالغصة والحسرة، وشعور بالغضب!

لقد كنت غاضبة من نفسي وأهلي ووطني وزمني وقدري...

لماذا أرحل؟ لماذا أهاجر؟

لماذا تهاجمنا «إسرائيل» ونحن نرحل والمستوطنون يبقون؟

لماذا القتل والدمار فينا، والعيش الرغيد فيهم؟

لم أعد أريد وطناً كهذا، أرضاً كهذه، قدراً كهذا،... يلعب بنا، ينقلنا من كفٍّ لكفٍّ، يبعدنا ساعة يشاء، ويعيدنا ساعة يشاء...

أريد أن أصنع قدري بنفسي، أريد أن أحيا حياةً ملكي.

هذا ما قررته على الطائرة، وحين لامست أقدامي مطار باريس نظرت إلى الطائرة قائلةً: «وداعاً يا وطني»...

هكذا قررتُ أن أبدأ حياتي من جديد، أقفلتُ كتاب لبنان وعاهدتُ نفسي الا أعود إلى هناك...

أنهيت جامعتي هنا، وبدأت رويداً رويداً اعتاد الحياة الهادئة...

قل لي أنت ماذا فعلت طوال هذا الوقت؟

لقد اشتقت إليك، اشتقت الى ذلك المقعد الرمادي... أتذكر؟».

- «وكيف أنسى؟ لقد أضحى مقعداً في ذاكرتي...

جمعت أوراقنا ووضّبتها عليه، الغبار يغطيها، لكن على الدوام كنت أيقن أنك ستعودين لننفض الغبار عنها!

بقيت في الحرب هنا، كانت حرباً جديدة لم نقرأ عنها في

تاريخنا، كان الموت فينا وفيهم، كانت المشاعر دفاقة في العروق، لقد أذقناهم طعم الموت والمرارة، وهم ما اعتادوا طعماً كهذا...

صحيحٌ أننا خسرنا البنية التحتية، المصانع، الطرقات، وأحدثت حفراً في المطار... لكننا ربحنا لحظةً سيتردد صداها في التاريخ الآتي... استطاعت «العين مقاومة المخرز»...

بعد انتهاء الحرب، عدت إلى الجامعة، أنهيت دراستي، بدأت العمل هنا وهناك،... الحياة صعبة والاقتصاد في أسوأ أحواله والناس تتقاتل على الوظائف.

صبرت لأنني لا أحب ترك وطني وأهلي، لكن على ما يبدو صوت النفير بدأ يعزف، والرحيل صار قاب قوسين أو أدنى...

لكن قولي لي أنت، إذا كنت قررت إقفال كتاب لبنان، فلماذا بعد هذه السنوات عدتِ لتتواصلي معي؟».

- «آهٍ يا صديقي...

مرت الأعوام وأنا أحاول قتل لبنان الذي يعيش داخلي... كنت كل لحظة أحنّ إليه، ولكني كنت أطفئ هذا الحنين، أحاول اغتياله واقتلاعه من مهجتي... ولكني تعبتُ...

كان إذا مرّ خبر عن لبنان في إذاعةٍ أو محطة ما، يهتف القلب للخبر لكن إرادتي وعقلي ينأيان بي عنه.

اعتدت أن أكون قوية ولكني وهنت، ضعفت، مرضت... هناك حيث ولدت وترعرعت، هناك حيث آثار طفولتي وصدى تنهداتي... لا زال الصدى يتردد في قلبي، يهزّني، يقتل وحشيتي وإرادتي الظالمة، يقضم منهما رويداً رويداً إلى أن عاد الحنين جياشاً لا أقدر على

إسـكاته...

عـدتُ أتابـع الأخبـار، ولا خـبر جديـداً أو جيـداً، ولكـن رغـم ذلـك، تفجّـر الحنـين في قلبـي وتـراني اليـوم أنهـي بعـض الأشـياء هنـا، أرتـب نفـسي لأعـود لوطنـي بعـد هـذا الغيـاب...».

- «كـم أفرحتنـي بهذا الخـبر، إن الوطن لغالٍ جداً...

مهـما تتابعـت النكسـات وازداد الوهـن في الصلصـال، تبقـى الأرض التـي مشـينا عليهـا وتفيأنـا قبـاب سـمائها أعـزّ مـن الكبريـاء وأقـوى مـن الإرادات!...

سـنراك في لبنـان إذاً؟ سـأعلم الـورود في الحدائـق أنـك آتيـة وسـأهمس لطيـور أيلـول أن تبقـى قليـلاً لاسـتقبالك...».

- «كـم اشـتقت إليـك... بضعـة أشـهر وسـأكون عـلى الموعـد، طائـرٌ يغـادر وأنـا أبقـى... مـلّ أيلـول مـن الوداعـات ومللـت أنـا مـن الغربـة».

الفصل الخامس:

ما لم يُقَل...

أخطر أنواع الأسلحة هي الكلمات!

فيها قد تدمّر حياة شخصٍ ما، أو قد تبني حياة زهرية لشخصٍ آخر!

بها تغتال من تريد، أو تبالغ بوصف ما تريد؟

بها تلعن شياطينك أو تصبِّح خالق الكون!

بها تحكم بإعدام فكر، أو تطلق حرية بريء من سجنٍ ما!

تعدو الكلمات على شفاهنا بسلاسة، تعبر الأثير لترسو بقلب الآخر، تنسج بداخله كوخاً من الأمان والطمأنينة، يهرع إليه إذا ما داهمه خوف الحياة، يقفل وراءه باباً وهمياً نسجه الخيال، ويستظل حناياه... قلبٌ يهرب لنفسه بنفسه، في عالم سرمدي نسجته له الكلمات!

أربع سنوات مضت، لم يكن حباً ما بيننا في الأمس، ولا يمكن اختصاره بصداقة! كان مزيجاً من الاثنين وربما أكثر!

الإعجاب بالروح والشكل أمرٌ طبيعي، لكن ذلك الاحساس الذي يقضّ مضجعك ويُصحي الشوك في الأجفان لم يكن موجوداً!...

مع غيابها ومرور الوقت كان يجب ألا تبقى حاضرة في الذاكرة، وإذا بقيت كان عليها أن تكون ذكرى عابرة... فأربع سنوات مدة طويلة...

لكن مهلاً! لم أنسها، كانت حاضرة دائماً، حنيني إليها بقي حاضراً في أنينها ساعة ودّعتها...

إذن هناك شيء بداخلي، وقد يكون بها أيضاً،... لن أدع الزمان يسرقها ثانيةً، فالماضي يحتاج إجابة زعزعت سكون الحاضر!...

مر شهرٌ من الزمن، كنت كل مساء استحضر شعراً لشاعرٍ ما، أكتبه وأرسله إليها، أو ابتدع غزلاً، أنمّقه، أجعله في موضوع معين.. وأرسله...

كنت أذيّل الرسالة بسؤالٍ ما أو استفسار كي أصنع من نهايتها بداية جديدة...

كانت ترد عليّ بالاستحسان أحياناً، وبالاستهجان أحياناً أخرى،.. فباريس لم تنسها عاداتها الشرقية!

- «صباح الخير يا صديقي... هل لك أن تحدثني عن التراب؟ فالتراب هنا ليست له رائحة...».

- «التراب يا صديقتي، معدن أجسادنا وألوانها، أو عدة الرسم الأولى للرسام الأول، به رسمنا من دون حاجة إلى الوحي وخبأ فيه

سر الحيـاة...

يفـترش الأرض كطبقـةٍ أولى ويجعـل مـن متنـه مرتعـاً للألـوان... يسـتقبل أقدامنـا بنعومـة ولعشـقٍ فيـه يترنّـح لنـترك أثـراً عليـه منـه!...

ترينـه يتطايـر إذا مـا جـنّ الريـح... يحـاول الالتفـاف عـلى أعاصيره كثـوبٍ بنـي، حتـى يخفـت الجنـون، فيعـود ليسـتلقي عـلى كفـوف الأرض...

يسـتقبل الشـتاء بحفـاوة، يلاعـب قطـرات مائـه ويعانقهـا، يقبلهـا، يمازجهـا، ومـا الرائحـة الذكيـة إلا عطـر تلـك العلاقـة، ذلـك الحـب...

تـراب بلادنـا يـا صديقتـي حكايـة قديمـة، نشـأنا بهـا ونشـأت بنـا، إذا أهملناهـا أو نسـيناها فـلا تزعـل، فنحـن سـطور تبـدأ وتنتهـي بهـا...».

- «آهٍ كـم اشـتقت لـتراب وطنـي، وصنيعتـه (الإنسـان هـو صنيـع الـتراب او مصنـوع منـه)! حتـى الـتراب عنـدك يُحـبّ؟ قـل لي إذاً، مـا هـذه الرسـائل التـي ترسـلها؟ نحـن أصدقـاء، أنسـيت؟».

- «يـا صديقتـي، عنـد المسـاء أغمـض عينـيَّ وأسـتحضر صورتـك مـن الذاكـرة، أبتسـم وأبـدأ بالكتابـة، أطلـق العنـان لجنـوني، فالفكـرة تنطلـق مـن الأعـماق عـبر الأوردة، لا تمـرّ بالعقـل لتنقيحهـا، تصـلُ لليـد ومنهـا للقلـم وتكتـب نفسَـها بنفسـها...

أنـا لسـتُ بحاجـة للتفكـير بمـا أكتـب لـكِ أو كيـف، هـي الأفـكار إن كانـت حولـك تعـبر عـن ذاتهـا، فـلا تـردد ولا توجُّـس، تنسـاب إليـك كـما تسـيل بداخـلي، رجاؤهـا أن تلقـاك ميناءً فـلا ترسـو في شـاطئ الزمـن أو عـلى ضفـاف الوقـت، فتبقـى أسـئلة في فراغـات أو مشـاعر في بـردٍ قـارس، لا تفيـد ولا يُسـتفاد منهـا...

لا أدري إذا كنا صديقين، لا أدري ما وصفنا أصلاً، ولكن الوقت كفيل بأن يوضح الصورة،...

لوقتها أنا سأكتب ما يخطر ببالي، فليس من عادتي أن اخنق شيئاً يتكلم بداخلي...».

- «حسناً... ولكن عليك أن تلعب في ملعب الصداقة... لا تقترب من حفافي النهر شرقاً أو متاهات الغابات غرباً، فأخشى أن تغرق وأفقدك أو تضيع ولا ألقاك.. ابقَ حيث أنت وابقني حيث أنا، لا تدع صوتك يتسلل إليّ، ولا تعبث بقلبي... أنا أعرف أن هناك مناطق غير مكتشفة بيننا، لكني أخاف الذهاب إليها، أخاف منك عليك وعلينا، على الأيام الجميلة... أحبّ ماضياً بريئاً أعرفه، أعشق تفاصيله الهادئة وأخشى مستقبلاً مجهولاً لا أدري جوانبه وزواياه المظلمة..

أخنق ما بداخلك الآن أفضل من أن نخنق شيئاً في المستقبل لا يمكن خنقه!».

- «لم أعتدْ إلا الجنون، ولم أكبت شيئاً بداخلي يوماً، ولن أفعل الآن، لأنني يا صديقتي لا أعرف ما بداخلي، لا أدري بما أشعر... سأترك الأيام تقرر والزمن يحدّد موقفي منك، أو موقفي من نفسي، المستقبل لم يُكتب بعد... سأخطه بيديَّ!..».

لست أدري إذا كنت قد أخذت قراراً بالتوجه نحو المجهول أو تركت القلب يحدد البوصلة للمستقبل، لا أدري إذا كان ما أقوم به خطأ، لا أدري ما فائدة الغوص في الجنون.

العقل يناديني للتوقف، والقلب سائر بلا هوادة!

جنون ودخلت لعبته، والمراحل لن تكون سهلة!

الفصل السادس:

حب وفراق ثانٍ!

توالت الشهور، زاد الحديث، زاد التقارب...

ما كان برعماً صغيراً على ضفاف القلب أصبح حديقةً غناء، ترنّمت العصافير باسمها، ينشد حفيف الشجر أحرفه، حتى الظلال ما كانت إلا رسمها في القلب!

الحب كالوحي: نأخذه من المصدر، يعبث فينا ليُخرج أجمل ما عندنا، يتكوّن بداخلنا بتأثير الشخص الآخر، ونعود لنسبغه عليه، وإذا كان التأثير متبادلاً ترنو إليها لتشرب من حبك فيها وتغدو إليك لتنهلَ من حبّها فيك...

بدأنا نحب الفكرة: فكرة أنها هي وفكرة أنني أنا!

فنحن قد مر الزمن بجوارنا، لم يلتقطنا ويجمع الوقت بنا بل وضعها في وادٍ وأنا في آخر، فمرّ الوقت ونحن بعيدان بالمكان، قريبان بالصورة، حبيبان بالفكرة...

- «أنـا متأكـدة أن مـا كان بيننـا منـذ خمـس سـنوات لم يكـن حبـاً، ولكنـي الآن لم أعـد أسـتطيع النـوم إذا لم أكلّمـك.

أسـتيقظ في الصبـاح لأننـي أعـرف أننـي سـألقى رسـالة منـك عـلى هاتفـي تجعـل نهـاري نهـاراً.

في العمـل كيفـما نظـرتُ أرى صورتـك وأبتسـم، لكأنـك أضحيـت وهـماً في خاطـري أو حلـماً سرابيـاً يـتراءى كلـما شـعر بحاجتـي إليـه.

أعيـد كلماتـك في عقـلي، أقلبهـا علّنـي أفهمهـا. لا أفهمهـا، فأنـت تكلـم إحسـاسي مبـاشرةً، توقـظ المـرأة النائمـة داخـلي، تعـزف عـلى وتـر خطـير برقـة، تجعـل مـن قلبـي معزوفـة لا تـدق إلا باسـمك.

مـاذا تفعل بي؟ إلى أين تأخذني؟».

- «أراك إذا أغمضـت عينـيّ، وأراك إذا فتحتهـما، لكأنـك أضحيـت أول صـورة أراهـا في الصبـاح وآخـر شـجن أسـمعه في المسـاء، فحـين يغـط الليـل عـلى فـراشي، أتوسـد عطفـه وأتغطـى بـبرده، أفتـش في عباءتـه عنـك، حسـبي انـه زارك وتركـت رائحـة عطـرك في ثنايـاه، أو صـدى همسـة وأنـين، أحملـه أشـواقي واسـتأذنه للنـوم، علـه يتركنـي وتصلـك أشـواقي.

رسـمت صـورة لرائحتـك في خيـالي، وطعمـةً لشـفتيك، نسـجت منـك قـصراً أسـكنه ومعطفـاً يدفـئ القلـب.

مــاذا أفعــل بــك، بــل مــاذا تفعلــين بي؟ لقــد بــتُّ لا أنطــق إلا باســمك، ولا أرى إلاك، وأنــت بعيــدة وبيننــا عواصــف مــن الوقــت والمعتقــدات...

ولكننـي سـعيد يـا صديقتـي مطمـئن، فـرح... قلبـي يسـابقني إليـك في كل حـين...».

أن تعتاد رؤية شخص ما، مكالمته، مسامرته قد تولّد عندك شعوراً بالارتياح، الثقة والطمأنينة... لكن هذا الشعور لا يمكن أن يرقى ليصبح حبّاً إذا لم تكن شرارة الحبّ مندلعة منذ البداية!...

يخبروننـي عن الحبّ بالمعاملة أو الاحترام أو التفاهم... لكن تلك الأصناف جميعاً هي «عادة» وليست حبّاً ومع الوقت تنتحل هذه الصفة، ولا نستدرك غالباً إلاّ بعد فوات الآوان.

لنسرد وقائع: أنا لم أرها منذ سنوات عدّة، لم أكلمها، لم اجالسها. لم المسها أو اقبلها، حتّى رائحتها لا أعرفها... كلّ ليلة أقبل بشوق لمحادثتها، بلهفةٍ لأسمع كلماتها، لم اعتد وجودها إلا في خيالي، لكأنها اضحت كلّ تخيلاتي... أراها في وجه كل فتاة اصادفها واسمعها في كل تغريد، اجعلها مقياساً للجمال والنعومة والاناقة والذوق والأنوثة... لا يشغلني عن التفكير بها شاغل... وإذا ما همست ببالي تأخذني إلى عالم آخر، تنسيني همّ الحياة وظلمها، تجعلني قادراً مقتدراً في قدر آخر ومكان آخر...

إذا ما تكلمت فتحضر احرف اسمها بين كلماتي، اهمل باقي الاحرف الأبجدية او أتناساها فتعطي لريقي طعماً حلواً ولشفتي بسمة بنكهةٍ أخرى!

إذاً؟!... انا احبها، بل اعشقها!...

ليس سهلاً ان تصل لنتيجة كهذه، لأنها ليست نتيجة بحدّ ذاتها، بل درب حافل بالمخاطر والأشواك... منطلق إلى غد جديد... إلى دنيا من الوضوح السرابيّ... واقع من الشجن في منخفضات الحياة... رؤية زهرية اللون لضباب مجتمعي، وصاعق معدّ للتفجير لا تعرف متى سينفجر!..

باقٍ على عودتها أقل من شهر... انتظرها كما الوديان لقطرات المطر... لتجري فيها سواقٍ من الأمل.. ترطب اوردتها، تنعش قلبها، تغسل غبار الأيام عنها وتجعل من فؤادها مصدراً لواحات غناء تتفتح مع الربيع...

مثلك أنا أيتها الوديان... أتعبني الغبار وظمأت لأرتوي!.. كلّ هذا التعب والشوق، كلّ تلك المراكب من الآهات والتنهدات كانت تنتظرها لترسو على شواطئ قلبها، لتنعم بدفء رمالها لترتاح في ميناء هادئ صافٍ... ولكن أمواج القدر أبت أن توصل سفني إليها... فجنّ البحر واقتلع الدفة ورماني في درب الغربة... هاجت رياح المنفى ودفعت بي إلى قدري... من منفى وطني إلى وطن المنفى...

حين بدأت تلوح أشرعتها في الأفق، نادى قبطان القدر بي، صعدت إلى المركب واتجهت إلى الغربة... فراق جديد، كأن الآلهة تبعدنا، او كأن الله له رأي آخر.

- «عشرون يوماً» وسألقاك!... مرّت الأيام بسرعة، ولكني بدأت أشعر بثقلها، دقائقها ترزح على أكتافي، لكن حسبي بأني عائدة وسأجدك تزيح عني مرارة وقتٍ مرّ بغيابك!..».

- «آه يا صديقتي، ماذا أقول لك؟ أأخبرك عما يفعل القدر او اروي لك عن سخريته؟ قراصنة الدهر سيأخذونني إلى الغربة الأسبوع المقبل، ستأتين لتجدي الكروم هادئة من دون عناقيد تزينها!..».

- «ألا تستطيع أن تبقى قليلاً؟ لأراك ولو لدقائق، لأرتشف دموعي من على وجنتيك! شوقي اليك سيدمرني اذا لم اصل وألقاك

تنتظـرني!».

نـادى الربـان باكـراً، بحثـت عنهـا في وجـوه القادمـين، بحثـت عـن حبـي، عـن عشـقي وأنـا عـلى يقـين بـأني لـن ألقاهـا. اقلعـت الطائـرة مـن مطـار بـيروت الـدولي، ودّعـت لبنـان مـن الطائـرة، تركـت أشـواقي هنـاك، لعنـت القـدر والأسـباب، أغمضـت عينـيّ واسـتيقظت في مطـار أبـو ظبـي الـدولي.

حـين لامسـت اقدامـي ارض المطـار، لفحنـي الهـواء الحـار قائـلاً «إصـحَ!»... مـا حـرارة الصحـراء إلا جـزء بسـيط مـن نـيراني.

فـراقٌ ثـانٍ، بطعـم آخـر، بلـونٍ جديـد، بسـخرية قديمـة بمـكانٍ أصفـر... ولكنـه فـراقٌ جديـد!

الفصل السابع:

بين العاصمتين!

تمر الأيام ساكنة، تتفيأ ظلال الوقت، تسرق من عمري دقائقه، على غفلةٍ وبدون انتباه! تنسج منها ما سيُسمّى بالذكريات لاحقاً، تحيّك لها رداءً منها، تضعها في جوهر الرداء. هناك حيث وضعتك الأيام سوف ألقاك يوماً ما..

خبّأت صورتها الجميلة في قلب الرداء، نظرت للقدر، تبسّمت ساخراً منه، غضب. فهو ما اعتاد إلا الشكر او اللعن: فإذا رمى الناس بالسعادة قابلوه بالشكر، وإذا رماهم بالحزن قابلوه باللعن، ومنهم من يقابلونه بالشكر أيضاً لصبرٍ فيهم او ايمان ما! لكن السخرية ما اعتادها، صرخ بي ما بك أيها الصغير الضعيف تهزأ بي؟! ألا ترى أنني استطعت تحويل ايامك وزمانك؟ ألا تشعر بوهنك ايها المسكين؟... ضحكت طويلاً وهو يزداد حنقاً وأجبته: يا قدري العزيز، قد يكون زمانك الآن، عصرك الذهبي، استبدادك

الماكـر، ولكـن غـداً سـيأتي زمـاني، بقـوة الإرادة وعـزم الحـب، غـداً سـأجعلك تمـشي بأقدامـي، تزحـف أمامـي إليهـا صاغـراً، نادمـاً، فـما يحملـه هـذا القلـب مـن حـبّ حتـى أنـت لا تسـتطيع إلا السـجود أمامـه...

بـدأت عجلـة الوقـت تسـير بهـدوء في الغربـة، كانـت الأمـور عاديـة، لم يتغـيّر الكثـير... كنـت أكلمهـا كل يـومٍ مسـاءً، أشـدّ مـن عزيمتهـا، أخفـف عـن حزنهـا بحـزني، عـن منفاهـا بغربتـي، أحـاول جعلهـا سـعيدة، فرحـة، نـضرة، أنسـيها وجـودي الموعـود وغيـابي المفـروض، أشـجعها كل يـوم حتـى عـادت الى بـيروت بعـد أسـبوعين وكلمتنـي مـن المطـار:

- «لقـد كان الطقـس صافيـاً، نسـيم عليـل رافـق الرحلـة الهادئـة، رأيـت وطنـي مـن شـباكٍ صغـير، فـرح قلبـي وقفـز بـين جانبـيّ... ثـم عـاد للسـكون بـألم، بغصـة... كيـف لي أن أرى وطنـي ولا أراك، أنـت، وطـن هـذا القلـب... كيـف لي أن أتنشـق رائحـة بلـدي ولا أتنشـق بلـدي وحبيبـي؟ كيـف أصـل وأضـمّ طيفـك بدموعـي.. ولا أراك...!».

- «هكـذا أراد القـدر يـا صغـيرتي، فـلا تحـزني ولا تبـكي، لا تدعيـه يضحـك علينـا فهـذا مبتغـاه! كفكفـي دموعـك واطلقـي العنـان لابتسـامتك، لا تدعـي غيـابي عـن المشـهد ينسـيك مـا فيـه مـن جـمال، لقـد عـدت إلى وطنـك ووطـن قلبـك لـن يطيـل الغيـاب!».

نعـم لقـد كان صعبـاً أن تعـود ولا القاهـا، شـوقي إليهـا يـكاد يوقـف القلـب مـن شـدته، حنينـي للصـورة يأخـذني، أقفلـت الخـط، تنهّـدت، أغمضـت عينـيّ قليـلاً وأكملـت عمـلي متمتـماً: « لـن يطـول

الغيـاب.. لـن يطـول الغيـاب»..

مـرّ ذلك النهـار وأقبل ما بعده...

- «كيـف حالك، بل كيـف حال الوطن معك؟!».

- «صعـدت مـن المطـار الى القريـة فـوراً، ذهبـت إلى المـكان الـذي كان يُسـمّى «بيتنـا»، وجـدت منـزلاً جديـداً لا أذكـره! ذكريـات غريبـة عنـي، فهـذا المنـزل ليـس بيتـي، جـدتي تجلـس في بـاب الـدار، عمتـي في الحديقـة المجـاورة تقطـف شـيئاً ما!..مـاذا تفعـلان في هـذا المنـزل، لمَ هـما هنـا بـل لمَ هـو هنـا؟!

أسـئلة عصفـت بي في ثـوانٍ، أدركـت بعدهـا أن هـذا منزلنـا «الجديـد»...

فبيتنـا القديـم قـد دمّرتـه الحـرب، واضحـى سـطراً جديـداً في كتـاب القتـل اليهـودي او وردةً ذابلـةً عـلى مـتن قـبرٍ تلمـودي حملتـه الغـارات الجويـة الينـا، مـن احقـاد كتبهـم الى قدسـية غبـار بلادنـا... وهـذا المنـزل قـد قـام عـلى أنقاضـه..

عـدتُ وحنينـي لبيتي... عدتُ لأجـدَ منزلاً لا يعرفني!

اغرورقـت عينـاي بالدمـع، سـلّمت عـلى جـدتي العجـوز، تجوّلـت في المـكان أحـاول إسـقاط ذكريـاتي عـلى الإنـاء الجديـد...

هـذه غرفتـي الجديـدة، ألوانهـا زاهيـة، لكنهـا داكنـة، بـاردة، أجلـتُ النظـر فيهـا وخرجـتُ للحديقـة، شـجرة الصنوبـر لا زالـت مكانهـا، ركضـت إليهـا، إلى طفولتـي، المـكان الوحيـد الـذي لا يـزال يعبـق بي، بصـوتي، ببـكائي...

بقيـت هنـاك فـترة إلى أن أقبـل الأقـارب والأصدقـاء، جلسـنا وتحدثنـا لسـاعة متأخـرة، كنـت سـعيدة وحزينـة في آن، تناقـض في

المشاعر يعصف بداخلي، فبين سعادتي برؤية من أحبهم، وحزني بفقدان ما أذكر، شوق يعتصر في الفؤاد إليك، عشق حارق لا تبرده نسائم الصنوبر... ولكني بخير!

أنت أخبرني، كيف حالك، وعملك الجديد!».

- «كل شيء جيد، يسير بهدوء، تغير العالم عليّ، وجوه جديدة، عادات أخرى، اصناف من البشر لم أسمع بها من قبل وأجناس من التقاليد لا تخطر ببال عاقل!.. ولكن الأمور جيدة بعامة».

- «ألم تشتق إليّ؟». (مع ضحكةٍ صغيرة)

- «لا أبداً، لم أشتق إليك لحظةً!

فالشوق بحاجة لغياب، وأنت لم تغيبي عن خاطري...

الشوق بحاجة لافتقاد، وأنا لا أفتقدك..

أنت حاضرة كالبصر في الضياء، لا تفارقين هذا القلب المتعب، حضورك طاغٍ على كل الموجودات من بشر وحجر وأفكار...

أكلمك كل حين، أتسامر وأداعب خيالك، أقبّل صورتك بدماء الوريد، أحدثك عن عشقي وغرامي... أتلو لك من حبك قصائد، ألوّن شفتيك بأحمر القلب... وأعود في المساء إلى ذلك الكوخ الصغير، أنام في أحضانك وأنسى...».

- «عمري، أيها المجنون، أنت تصنع مني امرأة أخرى، تصمم فتاةً على هواك، تجعلني مجنونة مثلك، تسرقني من مكاني لزمانك، من غيوم بيروت لضباب أبوظبي، ترسم صورةً لي على جدار الخواطر، تحيك لي عباءةً من الأحلام، تنتشلني من أحضان الواقع إلى أحضان جنونك، تذبح المنطق والجغرافيا وتقدّمهما قرابين في هيكلي.

تحدثني بسحر الكلام، تأخذني على حين غرة، تؤنس القلب، تملأه نبضاً ليعبق بالأمل، بفكرة الغد...

ما أنت فاعل بي؟ أهكذا يكون الحب؟ أهذا هو؟ لم أعد أعيش واقعي، بتّ أحيا في عالم افتراضي أنت مهندسه، جنون ما يحصل، لا يوصف إلا بالجنون، والمصيبة اني سعيدة، حالمة، مسترخية...

سلامٌ بداخلي يتناقض مع العقل وما يحاصرني... لكن دعني أسألك شيئاً:

ألا ترى أن الأقدار تبعدنا، لماذا تريد أن تزيدني جنوناً وتعلقاً بك؟ لماذا تريد أن تجنّ بي؟

أنت في عالم وأنا في آخر، وبيننا مسافات وأقدار تفرقنا!

على قدر روعة هذا الجنون، لكنه جنون سيقتلنا...».

- «لا أدري من أين أتى هذا الجنون الجامح، هذا الوله العاصف، هذا التعلق الإيماني، التوحّد الروحي...

تتدفقين في خيالي، تنتشرين على مساحتي بكاملها، تتغلغلين في كل فكرة، تدخلين أعماق الأعماق، تشكلين جوهراً بل هالةً ما، تنكمش لثوانٍ، وتتفجر ضاربةً كل منطق، تصعد بجنون الإعصار، توقد اللهب في عينيّ ، تسري كالبرق في جسدي، ترعد في بدني وتسارع دقات النوابض، تُصحّي السكون بكل اجزائه وتمازج زفير الجوع بصرير الأسنان، تحاول سلخ الجلد عن غليانه والهروب للمدى، تعرّق مساماً، تحرر ينابيع تأخذ من خطوط يدَي دروباً تتركها محترقة، حتى إذا ما وصلت إلى أطراف الأنامل هدأت وخفتت... أشبك يديّ وابتسم فقد مرت عاصفة أخرى من الوله على خير...

لم تعـودي إنسـانة بنظـري أو مـلاكاً أو قديسـة، لقـد صرت شـيئاً فـوق مسـتوى التحديـد والوصـف، كأنـك يـا صغـيرتي، قبلـة تركتهـا شـفاه قدسـية في فضـاء رحـب وتوسـعت نحـو الـلا محـدود...

لا لـن يقتلنا جنون كهذا!

جنون كهذا سـيحمينا، سـيجعلنا ننظر للغد بشـوق ولهفة...

بأمـل اللقاء بات هـذا القلب ينبض..

أنظـر للدروب، تسـابقني عينـاي للمنتهى، إليك...».

- «لسـت أعـرف يـا حبيبـي إذا كان مـا قلـت هـو مـا يجـري أو لا، ولسـت أدري كيـف ولمـاذا، لكنـي مثلـك بالإحسـاس، أسـبقك بالشـغف، أنظـر إلى المسـتحيل، أجعلـه رداءً، ألبسـه وأمـضي إليـك، لا أنظـر ورائي فحنينـي إليـك أفقـدني كل تفكـير... تركـت عقـلي عـلى قارعـة الطريـق، تحـت إشـارة «العـدم» ومشـيت إليـك...

لاقِنـي في منتصـف الطريـق، احضنّـي، قبلنـي، أغرقنـي بداخلـك وتفجّـر في داخـلي...

احملنـي عـلى بسـاط عشـقنا، إلى جنتنـا، الى صمتنـا، إلى أنفاسـنا... واتركنـي ألملـم قطـرات النـدى عـن شـفتيك».

مـرت الأيـام عـلى هـذا المنـوال، نسـهر كل ليلـة سـوياً، هـي في منزلهـا وأنـا في بيتـي، تمـرّ السـاعات بيننـا دقائـق، نتكلـم في كل شيء، نـسرد تفاصيـل ماضينـا وحاضرنـا، ولا نحـاول أن نرسـم شـيئاً للمسـتقبل !

حـبٌ عابـر للمـكان يجمـع مـا بـين اثنـين، يقـرّب أبوظبـي إلى بـيروت بـل يجعلهـما مكانـاً واحـداً في زمنـين اثنـين، هيـولى الصـورة لا

تدركهـا عـين بشريـة...

وككل حـب، لحظـات سـعيدة وأخـرى حزينـة، لحظـات بعيـدة وأخـرى قريبـة، ضحـكٌ ودمـوع،... متناقضـات وتفاعـلات في أخـدودٍ جانبـي للواقـع تجـري دون إبصـار البـشر وشروط المـكان...

عشـنا الحـب عـلى طريقتنـا، بجنوننـا، غرفنـا منـه زاداً يوميـاً يجعـل نهارنـا يعبـق بالفـرح وبأمـل التوحّـد المسـائي...

- «ماذا سـتفعلين؟».

- «سـأنهي عمـلي وأصعـد الى القريـة، يقولـون هنـاك عاصفـة ثلجيـة آتيـة، وكـما تعـرف، فقـد مـر وقـت لم أرَ الثلـوج تلبـس عالمـي القديـم فسـتانه الأبيـض... وقـد يطفـئ بـرد الثلـج بعـض نـيراني الملتهبـة بحبـك!».

- «نيرانـك القلقـة في الصميـم، يـا مـن تحاولـين تقنينهـا، لم يكـن مـن طبـع اللهـب الترويـض، ومـا كان الأرق مـن صلـب الشـعلة، لا تبحثـي عـن أسـباب خارجـك، ودعـي نيرانـك تطفـئ ظـمأك علّهـا ترويـك، ليتهـا ترويـني!».

- «لا تصـبَّ لهبـك عـلى جمـري، فـما فينـي يكفينـي، أتظـن هـذه النـيران لا تُحـرق؟ أتظنهـا لا تـؤلم؟ أتعـرف مـاذا يجـري حـين تثـور براكينـك بداخـلي؟ أأخـبرك أحـد يومـاً عـما يفعـل الشـغف بالمـرأة؟ أحدّثـك طيـفٌ مـن خيالـك أو جنـي مـن أوهامـك عـن وجـود جوهـر تعرفـه وتـكاد تلمسـه ولكنـه سرابٌ بـسراب!؟!

نـيران العـالم إن اجتمعـت، موقـدة صغـيرة بجانـب نـيراني وثلـوج الكـون لا تسـتطيع إطفـاء جـزء بسـيط منهـا!؟».

- «أعـرف يـا حبيبتـي ذلـك، فيـوم اتقـد الحـب في قلبـك كنـت حـاضراً، أخـذت الشـعلة لقلبـي، مـا علمـت أن نيرانـه سـتخرج عـن السـيطرة، مـا علمـت أن صـوراً وأفـكاراً وأطيافـاً سـتصبح واقعـاً وحقيقـةً ووجـوداً...

ما علمت أن المسـافات سـتصير جسر عبور بسـيط بيننا...

بأقـصى تخيـلاتي المتوحـدة كنـت أتوقـع كتابـات ملتهبـة، تعلـق مجنـون عابـر، نـزوة صبيانيـة ترسـمها الكلـمات وتمحوهـا الأقـدار.

آهٍ، يا صغيرتي، لو كنت تدرين...

فـما لهيبـك إلا امتداد لنيراني، وما جنوني الا انعكاس لشـغفك...

اصعـدي لقريتـك، انتشـلي صـورتي مـن قلبـك، ادفنيهـا في الثلـوج، دعيهـا تـبرد، تجمـد، تخمـد ولـو قليـلاً... لا تلمسـيها بيديـك العاريتـين، فتعيديـن دفـق اللهـب في ألوانهـا، ضعـي حاجـزاً مـن القطـن أو الخشـب، دثريهـا وامـضي... سـتعرف طريـق الرجـوع حالمـا تُحيـل الثلـج بخـاراً!».

- «لا بـأس يـا حبيبـي فأنـا اشـتكي مـن ولهـي لمصـدره، مـن تعبـي للمسـك، مـن جوعـي لغَمـرك، مـن أرقـي لإبصـارك، مـن ظمئـي لشـفتيك، مـن عطـشي لجسـدي أرويـه بجسـدك، مـن شـوقي لنفـسي تسـتيقظ بـين يديـك، مـن أنوثـة تتفجـر أنـت صاعقهـا، مـن امـرأة تنتظـر، أنـت رجلهـا..

كلي أمـل بـأني سـأراك يومـاً، نقـف عـلى هـذه الآثـار، تغمـرني ونضحـك... أحبـك...».

- «وإني بذلـك مؤمـن، فهـذا الحـب رغـم قسـوته فهـو عظيـم

سيستمر في أقانيم الزمان، سيحيل الصورة شخصاً، والحكاية واقعاً...

غداً، على أرضنا حين تتعانق شفاهنا، ستعم الفوضى في كل الأقدار وسيكتب الزمان عنا وعن حبنا، عما فعلناه وعما لم نفعله، عن هوانا، عن اضطراب الآهات بيننا، عن حبٍ تخطى المستحيل وغرس راياته بين زهور الأمل في دنيا الخيال، عن ولهنا الذي سخر من كل الجبال وصنع منها دروباً حجرية تربط قلبينا وتجمعهما على الخريطة ذاتها!».

الفصل الثامن:

أحاديث المستقبل

تشرق شمس نيسان، ترتعش المياه في الأعماق، تعانق حبيبات التراب تارة وتغازل الجذور تارةً أخرى، تأخذ وريدين اثنين مسلكاً لها، تخرج من الشجر أزهاراً وبراعم فثمراً...

حاضر الربيع يتغذى على ماضيه، والصيف المقبل مستقبله...

بالأمس رياح تشرين همست في البعيد في ما بينها، تكلمت عن نعومة وجه لامسته، عن جدائل سوداء كلما عصفت بها أغدقت عليها من عطرها عطراً، تسارعت للأفق تحاول حمل الرائحة إلى الزهر، تخبئها في حبيبات التراب كي تزهري في الربيع... أيا صغيرتي!

ربيعنا بدأ بالوصول، عصافير تجول بين البصر والسمع، جداول حب من نبعٍ إلى مصب، تقتل حافاتها أزهار القرنفل والياسمين، صدى العشق يترنح في الأجواء، يتكئ على غيمةٍ بيضاء تارةً وعلى

قوس قزح تارةً أخرى.

تغيب الشمس مطمئنة في أفق أحداقنا ويطلع ليل العشق ينشد قصائد «السياب» في الهياكل...

وإذا ما جنّ الليل ومرت ريح من شتاء قديم، استقبلها حفيف الشجر وجعل منها مقطوعةً موسيقية تخفف هدوء الليل...

كل تلك الخواطر، كل ذلك العشق كان يتماهى ويتجدول ليسأل سؤالاً واحداً: «ما الغاية، ما النتيجة، ماذا بعد؟».

- «أتحبني؟».

- «حتى الجنون».

- «والغد؟!».

- «لا أدري».

- «أسأصبح يوماً زوجتك؟».

- «لا...».

- «لماذا؟».

- «أنت تعرفين الموانع والحواجز».

- «أجل إني أعرفها، ولكن أليس هناك أمل صغير لهذا الحب الكبير؟».

- «لا يوجد».

نعم لسنا في «رواية شرقية بختامها يتزوج الأبطال»، لسنا في أقنوم واضح النهاية، ولسنا في مجتمع تطور العقل فيه لاستيعاب حب بين اثنين!

قد يتساءل احدهم، «ما الذي قد يبعدكما من بعد ما

جمعكما الحبُّ سوياً؟».

القلب يجمعنا والعقل يفرقنا، العشق يجمعنا والتقاليد تبعدنا، الشغف يجمعنا والمجتمع يقتلنا!

أنا وهي، كلٌ منا من بيئة مختلفة وجماعة مختلفة، أنا أدين لله بمذهب، وهي تدين له بمذهب آخر، وأدياننا قسمت الله على قياسها، فاستحال توحيده في تفريقهم واستحال الجمع بيننا!...

لم يكن هذا العائق حاجزاً أمام حبنا، ولكن في قرار مصيري كالزواج هناك رأي عام سخيف سيرفضنا، لا لصحة في رأيه بل لغباءٍ منتشر بين الأكثرية، مع الوقت أصبح حقاً وأصبح التحريم والتحليل يقومان على أساسه.

فالزواج، ذلك الطير الجميل، اذا ما خفقت أجنحته، انتقى روحين شاردتين من أسرة الأرواح، وصوّب طريقيهما طريقاً، يصعد عمودياً بهما، تلاحقه براثين الخبث الأرضي، تمسك به، تكبله، تضعه في قفصٍ - قد يصفونه ذهبياً - ما هو إلا نحاس سميك جبلوه من عقدهم وعللهم وأسقطوه على واقعٍ جاهلٍ، فأحالوا العصفور غراباً وبقيت الأرواح شاردة!!!

لم أفكر بالجواب كثيراً حين قلت لا يوجد أمل، فحبي لها يمنعني أن أرسم لها مستقبلاً من الأوهام، حبي لها يمنعني من الكذب عليها، يكبّلني بالصدق ولو كان الصدق جارحاً...

- «أحبك، لا لأني اخترتك، لا لأني أُعجبت بك أو أحسست بجمرك ودفئك، أحبك لسبب لا أعرفه، لإحساس ما عشته يوماً، أحبك صورة وضّبتها في كياني، خبأتها عن الناس، رويتها من دمي،

حفظتها بتفاصيلها، بنظراتها،... أحبّك لأن الله وضعك في طريقي...

أدرك أننا من عالمين اثنين، أدرك المصاعب، أعرف رأي جماعتي وجماعتك، أعرف كل الأشياء، ولكن اكذب عليّ، قل لي هناك أمل بصباح جديد، بيوم آخر،...

اكذب عليّ، اقتلني على مهل بكذبك، جرّعني المرارة على مراحل، جرّحني بسكين صغير، ولا تمتشق سيف الصدق مرة واحدة وتقطع كل أحلامي الجميلة..

بالله عليك اكذب عليّ...».

- «كيف اكذب وأنت الحقيقة الوحيدة في حياتي، كيف أبني لك وطناً في مستقبل ميت! كيف أعدك بما لا أستطيع الإيفاء به... وإذا فعلتُ، أتسعدين؟ أتبتسمين؟

لا، يا صغيرتي، ما اعتدت الرياء، ما صافحت كفَّ الكذب يوماً، وما حكتُ مؤامرات وإياه... لا... لا أستطيع..».

- «بالله عليك دع ما حفظته من مثاليات، دعْك من اوهام الصدق والكذب، اترك كلماتك في كتبك العتيقة البالية، اخرج من هذا السكون المهترئ، فصمت صدى كلماتك يذبحني».

- «وماذا أفعل؟ وجانحي مكسور! من اين اسرق غفلة الناس؟ وكيف ابني بيتاً شفافاً، لا تراه عيون مجتمعٍ مفترس ولا ترنو الأيدي الغرابية اليه!! لست مختبئاً بين كلماتي، وليس سكونها انعكاساً لحالتي! فما تظنينه ثائراً بداخلك، ليس بجزءٍ مما يشظي داخلي!!».

- «ألا تنسج لحبيبتك حياةً جانبية تجاور واقعنا المرير! صورةً او انعكاس مرآة في احداق الزمان!؟ بقعة صافية لا تشعر بظلام

الغـدر في الأيـام! ليـلاً يعبـق بالنجـوم ننتقـي اضـواءه، نداعبهـا، ترسـمها عـلى شـعري فأتركهـا عـلى كتفـك! عاصفـةً تحملنـي الى احضانـك فتحملهـا الى احضـاني ونبقـى نعصـف الى ان يجـن الهـدوء! زلـزالاً يهـدم اجـزائي بـين اجزائـك، فنتراصـف جـزءاً يلتصـق بجـزء! نيرانـاً تـأكل منـك فأشـتعل وتـأكل منـي فتثـور! أبديـةً تُبقـي اقـتران الـروح بالجسـد، فتـارةً انـا الـروح وتـارةً انـت الجسـد!... هـذا صدقـي فأيـن منـه صدقـك؟؟! هـذه أنـا فأيـن أنـت منّـي!! هـذا «كذبنـا» فأيـن نحـن مـن تفاهـة «الصـدق»!!

- «أوليـس قليـلاً مـا قلـتِ؟ أوليـس ضعيفـاً مـا وصفـتِ؟! اوليـس صدقـك بعضـاً مـن «كـذبي»! وخيالاتـك، وطقوسـك، وافتراضاتـك ورسـومك... اليسـت نقطـةً في جَـزْر حبـي فكيـف في مـدّه!!؟ لا يـا حبيبتـي لا تسـيئي الظـن، فلـو اسـتطعت لمـا أحجمـت. لا اسـتطيع تـرك قطعـة مـن الفضـة تخدعنـي فـلا أرى الا انعـكاس أوهامـي بداخلهـا وإذا مـا أزيلـت بـان اسـوداد الواقـع أمامـي!! هـذا صدقـي وليـس بتفاهـة، هـذا صـدق الواقـع يـا صغـيرتي!!».

- «إذاً مـا الحـل؟ إلى أيـن يقودنـا هـذا الجنـون؟ أهـو ورقـة يانصيـب؟ أم جـدول في بحـر اللانهايـة؟».

- «لا أدري إلى أيـن يقودنـا، لا أدري مـا الغايـة والهـدف ولا أدري مـاذا يحمـل المسـتقبل لنـا... كل مـا أعرفـه هـو أني أحبـك مـن دون أن أعـرف أيـن سترسـو سـفينتنا...».

- «فـماذا أكـون أنـا إذاً؟ حبيبتـك! عشـيقتك! فتـاة تلهـو بهـا! مـاذا؟».

- «أنـت حبيبتـي ومعشـوقتي، انـت علـة هـذا الكيـان وابتسـامة

هـذه الـروح، انـت يـد الملائكـة حـين غـادرت عالمنـا وبقيـت أنـت عالمـي، أنـت خيـال اغـرورق بواقـعٍ فتبسّـم، وصـلاة ليـل عـلى سـجادة فجـرٍ فأضـاء!! انـت مـا انـت؟! انـت انشـودة سـحرٍ في دمـاء عروقـي تنطـق باسـمك وتنبـض بهـواك.. تمشـين والعـين تخاطـر خطـاك، تتسـلل بـين أروقـة الزمـان الى شرفاتـك، ترقـب مكانـاً يغفـو فيـه ظلـك، تنسـج مـن لونـه عبـاءةً، تحضرهـا للفـراغ البـارد، تلبسـه مـن ظلمتهـا نـوراً، وتشـعل في ثلجـه شرراً كأن ليلـك اضحـى صبحـي او لـون عينيـك أصبـح بـصري بـل عينـيّ... انـت أكـثر مـما تسـعفني المعـاني واعمـق مـما يذكـره عقـلي... وأنـت صاحبـة القـرار اذا كان لا بـد مـن القـرار ..».

- «لا ترمِها عليّ!

أنـا أعشـقك بـكل جوارحـي وأريـد أن أمـضي عمـري معـك، ولكنـك لا تريـد، قـل لي هنـاك أمـل صغـير جـداً وسـأحيا بهـذا الأمـل، سـأنتظرك العمـر كلـه عـلى ضفـاف الوقـت، أرقـب ظلـك عـلى الشـاطئ، تلعـب بـه الأمـواج، ترسـمه، تمحـوه.

أنـت تسـكن بداخـلي، تسـتعمرني، تحتـل أنفـاسي، تجهـز عـلى مـا تبقـى مـن عقـل بـرأسي، تدمّـر كل منطـقٍ وشـذرة واقعيـة وشـعرةٍ ملموسـة...

لا تقـل لي خذي قراراً...».

- «حبيبتـي، صغـيرتي... أتظنـين أنـك تعيشـين وحيـدة في هـذا العـالم السرمـدي؟ ألا تدريـن أني لا أتمنـى سـواك ولا أطلـب إلاك؟! ألا تعرفـين بـأن حلمـي أن تكـوني معـي لآخـر دقيقـة في حياتنـا! أن تكـوني اكتـمالي وسر بقـائي! بـلى أنـت تعرفـين... وأنـا لسـت أرميـك بصعوبـة القـرار بـل أعطيـك القـدرة عـلى حـل مـا لا أسـتطيعه!».

- «لـو كنـت أسـتطيع القـرار مـا شـكوتك إليـك، أعـرف مشـاعري ومشـاعرك، بـل موقنـة بحبـك لي وأعـرف الوشـائج التـي بيننـا والجبـال التـي تفصلنـا...

أيقـوم حب هكذا، بدون خاتمة سـعيدة؟».

- «ومـن قـال إننـا بحاجـة لخاتمـة؟ دعـي الأمـور تجـرِ بنفسـها، فحيـث يقـوم زواج مـن غـير حـبّ، يقـوم حـب مـن دون زواج أيضـاً..».

- «دعنـا نرَ نهاية هـذا الجنون معك...».

عظمـة الحب وهوله!

فعظمـة الحـب تسـحق كل شيء أمامهـا، وهولـه يسـحق العقـل والمنطـق غالبـاً.

في مسـتنقعنا الشرقـي، مـا مـرّ غـزاة إلا وتركـوا آثارهـم، بيزنطيـون، فـرس، مغـول... لكـن أخطـر الغـزاة كانـوا هـم العثمانيـين فقـد تركـوا آثارهـم في الـرؤوس واللاوعـي، أو بالأحـرى فرغـوا العقـول مـن مضمونهـا وأصبـح الفـراغ آثارهـم...

أربعمئـة عـام مـن الجهـل والظـلام والضـلال لا زالـت تتفاعـل في حاضرنـا، وحاولـت كل الأجيـال التـي تلـت مرحلتهـم، وبخاصـة جيلنـا، التخلـص مـن هـذا الضـلال، تحققـت نجاحـات وبعضهـا مسـجل، لكـن الأغلبيـة لا زالـت مكبلـة بأغـلال المجتمـع وارتباطهـم الوجـداني بـه، لا لضعـف عقـلي بـل لضعـف عاطفـي...

هـذا الضعـف العاطفـي المـزدوج: ضعفهـا تجـاه حبنـا وتخليهـا عـن أهلهـا ومجتمعهـا مـن أجـلي، وضعفـي تجـاه مجتمعـي وتخـليّ عـن حبـي الوحيـد مـن أجلهـم! تناقـض في فـوضى هـذا العـالم أو هـزلٌ أو

تعقـل أو حتـى جـبنٌ، سـمِّه مـا شـئت، ولكـن النتيجـة أنهـا نادتنـي ولم أسـمع، هاجـرت إليّ ولم أسـتقبلها رغـم أن حبهـا يجـري في عروقـي دمـاءً!

تتابعـت الأيـام، رغم الأسى، فذلك الحـب الكبير لا يزال ذبّاحاً...

مـع الوقـت بـدأت تعتـاد عـلى فكـرة أننـا نحـب بعضنـا وكفـى... غالبـاً!

- «كيـف حالك يا صغيرتي؟».

- «أحيـا بحبـك رغم الخوف، رغم الأسى...».

- «ومـمَ الخوف؟ ولمَ الأسى؟».

- «الخوف من أني سـأفقدك يوماً ما، والأسى لأني سـأفقدك «.

- «ومن قال إنك سـتفقدينني؟».

- «أنـت قلت هذا».

- «سـتفقدينني لحظـة يمـوت هـذا الجسـد... وحتـى حينهـا سـتبقى روحـي في طيّـات جدائلـك!».

- «إني أفقـدك مـن الآن يـا حبيبـي، لأنـك راحـل لا محالـة، لأننـا لـن نكـبر سـوياً تحـت سـقف واحـد، ولـن ندفـن إلى جانـب بعـض في النهايـة».

- «سـنكبر تحت سـماء واحدة، وسندفن في التراب ذاته...».

- «كلام شـاعري تقتلـه الحقيقـة كل يوم قليلاً!».

- «وما الحقيقـة؟ ومن يعرفها؟

وما المسـتقبل؟ ومـا الأيام، وما العمر؟

تعابـير اعتدنـا تكرارهـا، تنسـينا حاضرنـا بـل تغتالـه، مـن أجـل

فكـرة متوقعـة قـد لا تحصـل أساسـاً!».

- «آه لـو كنـت أسـتطيع الحيـاة مـن دونـك... لـو أسـتطيع قتـل هـذا القلـب، هـذا الولـه».

بحبـك أحيـا وأصعـد، مدركـةً أننـا لـن نكـون لبعضنـا وهـذا مـا يذبحنـي..».

- «لا أدري مـاذا أقـول، فإحساسـك هـو إحسـاسي، وقلبـك مـرآة لقلبـي، ولكنـي بعكسـك لا أريـد قتلهـما، ولـو اسـتطعت، لأني سـعيد، فـرحٌ معـك، بحبـك... ولا أشـغل بـالي بمسـتقبل لا أعرفـه...».

- «مسـتقبل لا تعرفه!

إذاً يمكـن أن نكـون سـوياً في صـورة هـذا المسـتقبل! لمـاذا قلـت لا يمكـن؟!».

- «صحيـح أنـه مسـتقبل مجهـول، ولكنـه قائـم عـلى أسـس حاضرنـا، ماضيـه، والأسـس هـي القـرارات، والقـرار واضـح لكلينـا...

حتـى لـو كان مجهـولاً لا أسـتطيع أن أدعـك تأملـين شـيئاً لا أسـتطيع حالياً اتخـاذ قـرار الحـب فيـه...».

تكـرر هـذا الحديـث يوميـاً لفـترة... وحينـما كان يغيـب كانـت تنـوب عنـه أناتنـا وتنهداتنـا..

كان النقطـة السـوداء في هـذا الحـب الكبـير، حاولنـا إبقاءهـا نقطـة صغـيرة وألا ندعهـا تتوسـع.

كنـت عـلى يقـين بـأن هـذه النقطـة إذا مـا توسّـع قطرهـا سـتمحو كل مسـاحةٍ بيضـاء خطهـا الحـب بيننـا!».

الفصل التاسع:

الانتظار

مـرت سـتة شـهور، شـوق وحنـين، آهـات وتنهـدات، حـبٌ يرتسـم في الأثـير، مطبـوعٌ عـلى جـواز السـفر،...

كنـت أسـتقبل كل صبـاح ببسـمة وأودّعـه بـسرور، أقتـل النهـار تلـو النهـار مـن روزنامـة المنفـى، وأخطـو نهـاراً إليهـا، إلى حبهـا، إلى دفئهـا...

- «أقطعت تذكرة سـفر إليّ؟».
- «نعم..».
- «ومتى سـتحط رحالك في أحضاني؟».
- « بعد شـهر أو أقل...».
- «سـيمر هذا الشهر دهراً عليّ!».
- «لا بـأس، مـرّ الكثير وتبقـى القليل يا صغيرتي...».

- «فعلاً، لقد قاربت الساعة على خمس سنوات، كان شتاءً طويلاً لكنك ستأتي مع زهور نيسان هذه السنة، ستأتي لننهل من رحيق حبنا، لنضمّد جراح الغربة، لنلتقي وسط الطريق، مللت الضباب والبرد...».

- «الضباب يفترش الدروب، ويدك الدافئة في يدي، تمسحين الغيم عن زجاج الوقت، يقترب أنينك مني بهدوء اللهفة، بسكون الخجل، تعانقين صورةً ما رأيتها بعد، تطاردينها في السراب، تمسكين بأطرافها، تخلقين روحاً في ألوانها تنادي باسمك، لتقبل شفتيك...».

- «صورتك صورتي، هجرنا الإطار ودمّرناه، صنعنا من بقاياه مركباً، طاف بنا في عالم الغرائب، تخطّينا نظريات الوقت والمكان، صورتان متقابلتان تمسكان بالدفة ذاتها، لا تبحثان عن مرسى، تناضلان لتبقى بين الأمواج...».

وصلتُ إلى عملي، وقّعتُ حضوري، نظرتُ للتاريخ، باق أسبوعان، تبسّمت، مشيت الى مكتبي أحدث النفس بالخروج منه، ارتشفت قهوتي الصباحية، شفاهها مرسومة على الفنجان، تخاطرت وطيفَها، بدأت عملي، هو يجلس على زاوية الطاولة، ينظر إليّ، يداعب إحساسي، ألهو معه حيناً وأتركه حيناً آخر...

يقبل المساء، أمضي إلى منزلي والبسمة تعلو ثغري، أمضي على وفاة نهار وأحضّر كفناً للنهار التالي...

ما عادت الأيام تعني شيئاً في غيابها... لو كنت أستطيع إمساك بداية الأسبوع بيد ونهايته بيد، وأضمهما إلى بعضهما ماحياً ما بينهما، معجلاً من سفري، مقترباً من أحضانها...

- «يأخذني جنوني إليك، على بساط الأذان، اخترق الأثير إلى رؤياك علني أبصرك. برودة الصباح تدفعني للركض على ذلك الدرب، المكان موحش وغريب، الضباب يكتنفه، أبصر نوراً، لكنه بعيد، ألمح عينيك فيه، يكاد القلب يمزق الأضلاع وصدى نبضه في الأرجاء...

تعبت الانتظار، وهنتُ...

أين أنت يا حبيبي؟».

الفصل العاشر:

العودة واللقاء

الرابعة صباحاً بتوقيت بيروت، الطائرة تحوم بنا، تقترب من الارض، بعض الاماكن مضاءة ولكن الظلام يغلب كل الألوان!.. اشتقت الى وطني وأهلي واصدقائي، لكني لم اكن افكر إلا بها طوال الرحلة، قد يكون لأني أعرف ماهية اللقاء مع أهلي، ولكني اجهل كيف سيكون اللقاء معها!...

خرجنا من الطائرة ودخلنا المطار بواسطة ممر معدني، يحقننا الواحد تلو الآخر في جسد هذا الوطن المتعب، تأخرت عند الجوازات لأن الموظف يظن اننا وصلنا في وقت نومه وإنما عمله فضلٌ علينا وكرم! فلا بأس ان كان بليداً! وصلت إلى قاعة الانتظار أبحث عنها في العيون الذابلة، في الشفاه المحتارة،... سمعت صوتاً نادى باسمي، نظرت فإذ بها أختي!.. جاءت مع زوجها لاصطحابي، سلّمت عليها وعيناي شاردتان بالبحث في الوجوه، في الزوايا... لم

تـأت!... ولمَ العجـب؟ فقـد قالـت بأنهـا لـن تـأتي!...

وصلنـا مـع إطلالـة الشـمس الى القريـة، رائحـة الـتراب والـوزال تعبـق في الجـو، نسـمة بـاردة جعلـت أختـي تضحـك عـليّ وتسـخر مـن إحسـاسي بالـبرد!.. وصلـت المنـزل، قبلـت يـد امـي وغمرتهـا مـن شـوقي لحنانهـا، إخـوتي، أخـواتي... والعيـون شـاردة تبحـث عـن الصـورة، عـن الأمـل السـارح في الأجـواء... أحـس بلمسـة يدهـا عـلى خـدي فقـد عـاد الزمـان ليجمـع المـكان بنـا...

- «صبـاح الخـير حبيبـي، أصحيـح أنـك عـدت! أصحيـح أننـا في الزمـان نفسـه تطـأ أقدامنـا المـكان ذاتـه؟ أتُـرى حقيقـة هـذه أم وهـم؟.. لا اصـدق انـك عـدت، اشـتقت اليـك، متـى سـأراك؟ اليـوم، غـداً! او تعـال الآن، نعـم الآن لا بـأس بـه!.. تعـال إليّ أخـاف حصـول شيء مـا، لا تتأخـر..».

- «هـدئي مـن روعـك يـا صغـيرتي ولا تقلقـي، إني آتٍ كـما وعدتـك..».

بسـمةٌ لا تفـارق شـفتيّ وشرودٌ بـارد يعصـف بـين الحاجبـين، إذا مـا تقاطعـا همـد السـكون في داخـلي وإذا مـا تضـادا انبعـث الزفـير مـن مركـز القلـب. أنظـر مـن شرفـة مـكاني إلى أفـق الأبصـار، ترتفـع جبـالٌ ضبابيـة، أجيـل النظـر فيهـا، حولهـا، أحـاول افـتراس ممـرٍ مـا، ارسـم خطـواتي في كنـف اوهامهـا، يعيـدني الـبرد مـن البعيـد، أتدفـأ بفنجـانٍ مـن القهـوة أضمّـه بـين يـديّ، أحـس بحرارتـه في المـريء... تعطينـي أمـي مفاتيـح السـيارة وبعـض الأغـراض، وأهـمّ بالرحيـل اليهـا... تأخـر اللقـاء كثـيراً بـين مـكاني ومكانهـا، ولكـن هـذه المـرة الزمـان عـلى الموعـد!...

- «أين انتِ؟».

- «لا زلت في عملي، سأنتهي عند الرابعة عصراً، أين سألقاك؟».

- «أنا سألقاكِ!».

وقفت على الرصيف أنتظرها، مرت ساعة من الوقت او اكثر، رأيتها في البعيد تمشي ناحيتي، تفتش عني بين المارة، راقبت تنقلاتها وحيرتها، لا أدري اسم الإحساس الذي اعتراني، مزيجٌ من الشوق والوله في كأس من الفراغ! مشيت صوبها، أبصرتني، توقفت، جلست على مقعدٍ وسط الرصيف تنظر وتنتظر. اقتربت منها، جلست بجانبها، تسامرنا بأبسط الكلام، وكانت يدي تقصّ ليدها كل أحاديث الغرام والشوق. جلسنا قليلاً ثم توجّهنا لمطعمٍ قريب فكلانا ما زال بدون طعام.. جوعان: جوع طبيعي وجوع للآخر، بدأنا بإطفاء الجوع العادي أولاً.

- «ما زلت لا أصدق أننا التقينا» (وتضع يديها على وجهها الأحمر).

- «ماذا ستأكلين؟».

- «لا أريد، سأشرب عصيراً».

- « حسناً، سأتناول سلطةً ما...».

- «أردت ان اراك في مكان عام لأول مرة بعد هذه السنين لأتأكد من مشاعري تجاهك..».

- « وبعد؟!».

- «لا تتأخر في الطعام يا حبيبي...».

أنهينا الطعام وذهبنا الى احد الاماكن الخاصة. لقاء «التعارف»

انتهى سريعاً، بالنتائج المتوقعة.

لقاء الحبيبين لما يبدأ بعد.

أعوام من الانتظار والآهات والبعد والفراق تنبثق في لحظة واحدة.

أنهار شوقٍ وسواقي ولهٍ تنبع من كلينا ستصب سوياً.

جوعٌ كاد ان يقضي على كلينا ينتظر إخماده.

ما لم يستطع اللسان قوله او الحبر كتابته او ساعي البريد إيصاله.

بضعة امتارٍ ونكون سوياً، ما بقي إلا القليل!...

جلست على كرسي وسط الغرفة، وجلست بمواجهتها، انظر اليها، اتأكد من صورتها في خيالي، آخذ ريشة من الأهداب وارسم حولها خطوطاً تنطلق من ذاكرتي لتحيط بها وتشدّها إليّ.

تنظر إلي، تبتسم، تحاول إلهاء نفسها بالبحث عن لا شيء في محفظة يدها، صوت الأغراض التي تبعثرها يمتص قليلاً من سكون ما قبل العاصفة!

اقتربتُ منها، أمسكت يدها وقبّلتها، ثم جلست بجانبها ضاماً إياها على صدري بهدوء، احاول ان أشم رائحة حبي في شعرها الاسود.

تبدأ المشاعر بالغليان، «ضبط النفس» بدأ يخرج من باب الغرفة، هدوء الغمرة وسكون الحالة بدأ بالقلق، حيطان الغرفة بدأت بالتعرّق وأعصاب اليدين أخذت بالانكماش...

رفعت وجهها ناحية وجهي، صعقني البريق في عينيها، أقبلت

عـلى شـفتيها سـاكباً عشـقي بعشـقها، مازجـاً دمـي بدمهـا.

تراجعـت قليـلاً، أعـدت النظـر إلى حبـي المتجسـد امامـي وأمعنـت نظـري في جمالـه وسـحره. الولـه ثـار في الأعـماق وعواصـف جنوننـا دفعتنـا الى بعضنـا، قبّلتهـا حتـى ذاب الفـم والعنـق والنحـر... وتداعـى الوقـت بـين لحظـات عشـقنا، رسـمت عـلى جسـدها بحبـي دبوغـاً وخطـت عـلى جسـدي بأظافرهـا قصائـد، زرت كل زاويـة مـن وطنـي، وقبلـت كل أرصفتـه وحنايـاه.

مـرّت السـاعاتُ بنـا عـلى فـراشٍ مـن الحـبّ، نحـاول جمـع جسـدَين، فرقهـما الـتراب يومـاً، في جسـدٍ واحـد وتتعانـق أطرافنـا حتـى الأهـداب.

- «كنـت إذا عصـف الشـوق، أنظـر إلى صـورة عينيـك، جدائلـك السـوداء، أغـرف مـن رؤيـاك زاداً للبـصر، وقـوداً للـروح.. أمـضي اليـك بخواطـري وأوهامـي، أكاد ألمـس شـفتيك هنـاك في اللامـكان عـبر ألـوان الوقـت.. ولا أراك!.. والآن أنظـر في عينيـك وأحـسّ بلهيـب جسـدك ولا زلـت محتـاراً مـن فرحـي! أهـو فـرح الواقـع ام فـرح الصـورة التـي نسـجتها في خيـالي..».

- «لم تكـن الصـورة إلا واقعـاً افتراضيـاً، او محـاكاة لواقـعٍ مسـتقبلي، نمّقهـا الوقـت وشـذّبها المنفـى حتـى أضحـت صافيـة، شـفافة... وحـين ارسـلك القـدر إليّ غلّفـك بوشـاح مـن الصفـاء، اخـذت الوشـاح ولففتـه حـولي وقبّلتـه وأعطيتـه روحـي وكيـاني.. بالأمـس كانـت الـروح لـك واليـوم أضحـت والجسـد وبذلـك أكـون قـد وضعـت اللمسـات الأخـيرة عـلى لوحـة عشـقنا المجنـون..».

- «لا لم تكتمـل اللوحـة بعـد، فـلا زال هنـاك الكثـير مـن الألـوان، ونحـن سنرسـم الى ان تقـع فرشـاة أحدنـا فيوقـع الآخـر عـلى

اللوحــة.. ويمــضي».

- «دعنا نرسم أطفالاً صغاراً، وكوخاً صغيراً نكبر فيه ودرباً جميلاً لا يهم مداه، وبيوتاً على ضفتيه وشمعداناً في نهايته من النار الأبدية يبقى يستعر بعد أن نقطع الخط..».

- «ليتني أستطيع رسم شيء بهذه الرقة، ولكن أناملي تعجز أمام الوان الواقع الباردة. سأرسم عوضاً عنه خطاً بدون نهاية واترك للزمن ان يزرع حوله ما يشاء.. فإن كان ورداً فوردٌ وإن كان شوكاً فشوك، لكن ازهاره لن تثمر وأشواكه لن تجرح...».

- «أتدري أنني أعرف كل أجوبتك! لكنني أريد لسمعك أن يبصر قولك، فلعلّك يوماً ما تبصر يا حبيبي.. قل لي ماذا الآن؟».

- «عليك أن تحاولي الحب وتبني أسرة لك، سأحاول الشيء نفسه وسيبقى حبنا كوخاً صغيراً في البعيد نلجأ إليه، كلما عصف الزمن بنا...».

انتهى ذلك المساء وعادت لمنزلها...

افترشت السرير ذاته الذي كانت تشاركني إياه منذ بعض الوقت، أشمّ عطرها، أحس ببقايا دفئها، أغمر طيفها وأناجيه، أبكي على تجاعيد الشرشف وأنام...

- «ألا زلتَ هناك؟».

- «نعم!».

- «إني أحضّر نفسي وآتية إليك أيها المجنون..».

مرّت ساعة ولمّا تحضر! حاولت مهاتفتها لكن الخطّ مقفل! ساعتان، ثلاث، أربع... بدأت أبحث عنها في الطريق ما بين

المكانين، في وجوه المارّة، في مقاعد السيارات، في زوايا الأرصفة... ولم أجدها. لم يكن معي رقم هاتف احد من اصدقائنا المشتركين لأن اغلبهم قد طوى الزمان صفحتهم وأصبحوا مجهولي العنوان. أختها لا تزال في فرنسا! بمن اتصل وكيف أجدها؟! أمضيت الوقت ابحث عن سرابٍ ولا أجد احداً.

مر يومان أو اكثر لم اعد اذكر، فالنوم فارق عينيّ وأعصابي شارفت على الانهيار، بحثت عنها بين غبار الطرقات حتى صفحة الوفيات في الجرائد نقبت في كلماتها!

يدق الهاتف: مكالمة خاصة من دون رقم!

- «حبيبي!».
- «حبيبتي».
- «لا تقلق عليّ، لقد تعرضت لحادث على الطريق، ولكني بخير».
- «أين أنت، بأي مستشفى؟!»
- «لا عليك، أنا بخير، لا تبحث عني، أحبك!»... وانقطع الخط...

تبسّمت باكياً! فهي بخير في اللامكان، في اللاإدراك، وهمدت على فراشي مستسلماً لملاك النوم، وغفوت...

في اليوم التالي حاولت أن أجد طريقة لمعرفة مكانها، وفي اليوم الذي تلاه كذلك.. ولم أستطع..

ضاق الوقت وأسرع بخطواته وقبطان القدر ناداني من جديد. إجازتي من منفاي قد انتهت وأبواب الغربة فتحت من جديد وبدأوا بتدوين الأسماء، واسمي مبعثرٌ بين الكثير من الأسماء

الأخرى التي شدّت على الرحيل تاركةً وراءها ألف قصة وحكاية، ولكنها لن تكون في غرابة ما أنا فيه!...

أقلعت الطائرة من مطار بيروت، نظرت الى وطني من سمائه، تساءلت ماذا تغيّر عن اول فراق؟! أغمضت عينيّ المتعبتين والحيرة والقلق يأكلان كلّ المشاعر الأخرى واستيقظت في مطار ابو ظبي... كأن هذه الفترة التي مضت ومضةٌ بسيطةٌ بين زمنين، المشاعر ذاتها بل أسوأ، فكلّ الغبطة قد وضبت في صندوقٍ من الأرق ووضعت في أدراج القلب وبقي مفتاحها مع حبيبةٍ لا اعرف مكانها أصلاً!...

تبّاً لقدر كهذا، ينسج مهزلةً يجعلني بطلها، تتغذّى على اعصابي وغضبي، تسير بنبض القلب المتعب، تستمر بالنوم المفقود وتجري في كواليس الحقيقة بعيداً عن المشاهدين ومن دون ضابط إيقاع.. جميلٌ جداً!...

الفصل الحادي عشر:

حيرة المنفى

صباح الربيع في ابو ظبي له طعمٌ بارد وجاف. نسمةٌ باردةٌ تركض مع ثواني الفجر الأولى، تتسلل بين ثيابي، تذكرني بالخريف في بلادي، تنثر رمال الأرق في قلبي المتعب، تبحث عن قطرة دمٍ تلهو بها، تعبث في صحراء فراغي قليلاً وتنسحب إلى صحراء نظري وتذهب بعيداً... تبقى حبيبات الرمل تضرب غشاء القلب، تترك ندبة صغيرة في كل مكان، تتجمع الندوب وتتراصف راسمةً صورة من ذاكرتها القريبة تتلخص بوجه حبيبة، بلونٍ أسود كطعم الفراق مع مشحةٍ خريفية صفراوية بسيطة لتعطي للمشهد طابعه. تتساقط الندوب في الدماء العاملة حيث توصلها الى اعضاء الجسد الهزيل، فتخرج بأبهى الحلل: وجومٌ في الوجه، رعشةٌ في اليدين، حيرةٌ في المقل... تمشي الأقدام بي إلى عملي، قهوتي تنتظرني، لونها مرآة لوجهي وطعمها المرّ عسلٌ ينساب في دمي.

مـرّت الأيـام الاولى بهـدوءٍ خارجـي، بغليـان داخـلي يعـصر دوالي القلـب، كنـت أبعـث برسـائل عـدّة إلى هاتفهـا المغلـق، ولا تصـل الرسـائل، واضبـت عـلى ذلـك لإراحـة قلقـي وحـزني ولـو قليـلاً، ولتضليـل قلبـي وإخـماد نـاره.

في العمـل، اصدقـائي يسـألونني عـن الأرق في عيـوني، عـن اللامبـالاة في الحركـة، عـن ردّة الفعـل البطيئـة، عـن الـشرود، عـن الوهـن... ومـا عسـاي أقـول؟! ظـلٌ أنـا في مـكان ومـا تبقـى مـن أجـزاءٍ منـي في مـكان آخـر، اجهـل عنوانـه وأبعـاده، لا اعـرف فيـه إلا الظـلام، تركـض روحـي فيـه، يـصرخ صـوتي باسـمها!.. حتـى الصـوت لا صـدى لـه... ونسـتمر!

أعـود لمنـزلي، أجلـس محاطـاً بصورهـا، أنظـر في عينيهـا وأحـدّق، أحـاول إنطاقهـما، أتـرك صـورةً لأمسـك بأخـرى لأعـاود فعـل التـصرف ذاتـه. أغفـو بـين حبـي وحـيرتي، ممـدداً حينـاً جالسـاً أحيانـاً، أصحـو بعـد قليـل لأجـد النهـار قـد أقبـل، أغسـل عينـي الزرقـاء وأمـضي إلى عمـلي، أحـدّث النفـس بالبقـاء في المنـزل، ونفـسي تردعنـي وتقـول «أخـرج»! فالذكريـات المبعـثرة عـلى الأرض خناجـر تفتـك بالوريـد تلـو الوريـد...

عـلى هـذه الحـال، لشـهرٍ أو أكـثر، مـا عـدت أعـدّ الأيـام فـما عـاد الوقـت يعنينـي.. حاولـت كلّ مـا أسـتطيعه، حتـى أختهـا لم تـرد عـليّ: كأني أضعـت الزمـان او هـم غـيّروا كل عنـوانٍ لهـم. عضنـي القـدر وتـرك الجـرح مفتوحـاً، أهيـم بـين جبالـه الحمـراء والسـوداء، قدمـاي في مسـتنقع يعـجّ بـالآلام وعينـاي تنظـران الى أفـقٍ مسـدود... لكننـي أمـشي!...

ورقـة صفـراء، تسـقط مترنحـةً، تغـطّ في جـدولٍ صغـير، يحملهـا

عـلى سـطحه، يركـض بهـا بـين الحافـات، تنظـر يمينـاً ويسـاراً، تعـرف الأشـياء وتجهـل المصـير.. تلتقطهـا يـد طفـلٍ صغـير، ترفعهـا مـن المـاء، ترميهـا في الهـواء، تسـقط عـلى الأرض لا حـول ولا قـوة، تـأتي الريـاح، تلاعبهـا، تنقلهـا مـن بيـدرٍ لآخـر، تفتتهـا قطعـاً صغـيرة تتعانـق مـع الأرض فتـذوب.

كتلـك الورقـة كنـتُ، لكـن المفارقـة أننـي عندمـا انتشـلتني يـد حبيبتـي مـن مسـتنقعي، عـادت الحيـاة تـدبّ بـين أضلعـي، ومـا تفتـت منـي عـلى جانبـي الطريـق عـاد والتصـق ببعـض، متشـبثاً بالأمـل متنفسـاً الصعـداء...

حينـما دقّ الهاتـف، وكانـت حبيبتـي، أدار عمـري وجهـه بسرعـة ناحيـة الحيـاة، ركضـت أقدامـي بـه ناحيتـي، عصفـت زوابـع الحركـة في سـكوني وامتـدت يـدي الى الهاتـف...

- «حبيبتي!».

- «أيـا عمري وضيّ عيني».

- «أهكـذا يـا حبيبتـي! أهـذا جـزاء الحـب؟ أيكـون الولـه والعشـق مذنبـين لتحكمـي عليهـما بالحـيرة؟! أأنـا، حبيبـك، مـن تذيقينـه أصنـاف مـرارات الزمـان في ريعـان الشـباب؟ لمـاذا؟ بمـا أخطـأت؟ مـا جـرى ليكـون حكمـك هكـذا؟ قـولي لي باللـه عليـك!».

- «أنـا؟! ومـا شـأني بمـا ذكـرت؟ وكيـف لـك أن تحـشر هـذه التهـم في صفحتـي؟ ألا تسـأل اولاً كيـف حالـك؟! أنسـيت مغادرتـك وأنـا في المستشـفى؟ مـا بـك، أَجُننـت؟!».

- «لا شـك في جنـوني، وحقـك عـليّ أننـي لم أسـألك! ولكني سـألت طيـور البراري أن تجـدك، وحاولـت مـع اسـلاك الهاتـف، والتجـأت لـكلّ

مـن سـمعت عنهـم مـن قديسـين.. حتـى نسـيت سـؤالك أنـت! اشـتقت اليـك، اعـذري غضبـي فهـو يتغـذى عـلى ولهـي بـك وعـلى الفـراق..».

- «أنـا بخـير، خرجـت أمـس مـن المستشـفى، كانـت أضلعـي مكسّرة وأطـرافي، عانيـت الأمرّيـن هنـاك، لكـن حبـك الجـاري في دمـي سـاعد الجـروح لتختـم، والجسـد ليصـبر... كانـت فـترة عصيبـة ولكنهـا مضـت..».

- «كنـت لأكـون بجـوارك بالجسـد، لكنـك لم تسـمحي! تركتنـي في نهـرٍ مـن القلـق يصـب في بحـرٍ مـن الحـيرة، يتـمازج الاثنـان ليصنعـا ملحمـةً مـن الغضـب والأرق داخـلي. مـاذا جـرى؟! أخبرينـي».

- «تعرّضـت لحـادث مـرور، واسـتعدت وعيـي في المستشـفى بعـد ثلاثـة أيـام... ومضـت الأيـام».

- «لمـاذا لم تكلمينـي؟ لم تركتنـي بعيـداً في زاويـة مظلمـة؟ كان عـليّ أن أكـون معـك...».

- «لم أرد أن تـراني كيـف كنـت، مكسّرة العظـام، ممزقـة الجلـد، لا اريـد ان تنطبـع في عينيـك صـورة لا اريـدك ان تراهـا... ولكـن الآن، انـا بخـير، وعـدت الى اهـلي واحبـائي، وكالعـادة لا ينقصنـي إلاك...».

- «لـن أجادلـك في عصبيتـك الأنثويـة، فقـد جـرى مـا جـرى... إني سـعيدٌ بعودتـك بخـير، بعودتـك إليّ، بعـودة نفـسي الى نفـسي...».

الفصل الثاني عشر:

الفراق المتكرر

تتعانق قطرات المياه في كبد الغيوم، تحملها كالجنين في رحمها، تعشقها عشق الأم صغارَها، تحملها عبر الأثير، تجوب بها البلاد، وحين يحلّ المخاض تتركها تذهب لتلاقي حبيبها التراب، تتغلغل فيه، تعانقه، تقبّله... يُصيب الغيوم فراغ كبير، ترتفع لأعلى فأعلى حزينة، تقترب من قبّة السماء، تنتحر من عشقها الضائع وتتلاشى...

كالغيم حبّنا!

وكقطرات المياه كنّا!.. عشقنا، لعبنا، تسامرنا وقد حان الوقت لنترك الغيوم، لنوقظ أعيننا على وضوح الواقع، على صلابته وبشاعته. غيمةٌ كبيرةٌ حملتني وإياها، قطعنا تذكرة الرحيل عنها بإرادتنا، فحبنا لن يثمر وعشقنا لن ينمو وفراقنا محتوم... تركنا حبنا في السماء ونزلنا أرض الواقع، قطرتا ماءٍ كلّ واحدة في جدولها!

- «ألا زلت عند رأيك؟ عند دعوتك؟ عند جنونك؟ ألا زلت تريدني أن أحبّ غيرك وأتعلّق بغيرك، الا زالت دعوتك لغيرك أن يحبّني قائمة؟! أتركك هذا الجنون، أغادرك؟ أم لا زلت كما كنت!».

- «الثابت هو عشقي وولهي، الثابت هو عقلي ومنطقي، الثابت هو جنوني بك، الثابت هو العبور إليك، الثابت هو كلّ كلمةٍ قلتها لك يوماً، الثابت هو صدقي معك... لا زلت كما كنت يا حبيبتي، أنظر إليك فلا أرى إلا ملاكي، حبّي.. أنظر أكثر فأستنتج أنك حبي الضائع، او حبي العقيم! لا زلت كما كنت بركاناً من الصبابة تحكمه نسمةٌ من العقل، تطفئه على ارض الواقع!».

- «سيفك المسلول هذا يذبحني، يمزقني، ولكنه يدفعني بعيداً قليلاً. إني ابحث عن مساحة بين حبك الكبير وواقعي الصغير علني أجد احداً ما على مقعدٍ رمادي، أستطيع حبّه ولو بعشر ما أحبّك!».

- «ستجدين، وسأجد... وسنبقى حبيبين ما دام في الجسد نفسٌ ملتهب، او رعشةٌ شعواء، او إحساسٌ مشاغب، سنبقى لأننا جمعنا الله وفرقنا ورثة رسله، سنبقى لأننا نحن، أنا وأنت، نسمتان من روح الله الواحدة لا فرق بين نسمةٍ وأخرى».

- «سأحاول أن أبقى بعيدة، أن أحبّب نفسي بآخر، أن أتناسى طيبتك ودفئك، أن أرسم وهماً أدعوه «غدرك»، أن ابتدع صورة أسمّيها «خيانتك»، ان أؤلف إحساساً ادعوه «كرهك».. سأجمع اوهامي جميعها، كرهي لواقعي، حقدي على مجتمعي وأصبها في

قالـبٍ واحـدٍ وأسـبغه عليـك، عـلّ هـذا القـدر مـن الكراهيـة يبعـدك عـن بـالي ولـو دقائـق في النهـار!».

اتفقنـا على ان نبتعد!

يا لَهذه السـخرية...

نجـمٌ يعشـق كبـد السـماء، يسـكن وسـط حناياهـا، يشـع نـوراً، يرسـله في أوردتهـا، تحضنـه، تحـنّ عليـه، تنشـأ بينهـما علاقـة حـبّ ونورانيـة.. يقـرر النجـم فجـأة أن ينطفـئ او تقـرر السـماء أن تتخـلى عنـه، فيتحـول مـن نـورٍ الى ثقـبٍ اسـود تحملـه ندبـة في قلبهـا وتبـكي عليـه...

القلـب متعَب ولكن البـال مرتاح، او هذا المفترض!

وضّبـت قلبـي في علبـة صغـيرة، وبعثتـه عـلى جنـاح حبـي إليهـا، عرفـت أنهـا سـتحفظه جيـداً، فهـذا القلـب لا معنـى لـه بغيابهـا ومـن غـير فائـدة.

- «سـأحاول البقـاء بعيـداً عنـك، ارقـب خطواتـك مـن بعيـد، سـأقفل بـاب كوخنـا القديـم، سأشـعل الموقـدة وأجلـس عـلى ذلـك الكـرسي، احمـل قصتنـا بيـديّ، وأقـرأ كلَ تفاصيلهـا، سـأنتظر أن يـدّق البـاب يومـاً، وألقـاك عنـد العتبـة متعبـة... طـيري في دنيـاك، حلّقـي في البسـاتين، ابحثـي عـن داليـةٍ تسـكنين إليهـا، اركـضي، اتعبـي، اضحـكي... ابحثـي عنـي في العيـون، فقـد تجديـن مـن يعشـقك اكـثر منـي.. وإذا احتجـت لحنـاني يومـاً، وعـسى الا تحتاجـي، اجعـلي مـن قلبـي بوصلـة بـين يديـك يرشـدك الى مـكاني، الى دفئـي، الى عشـقي... الى كوخنـا القديـم..».

الفصل الثالث عشر:

هجرٌ وعودة ونكران

التضحية، كلمة تتردّد على الدوام، في صيغٍ مختلفة: التضحية بالروح، بالجسد، من اجل حبيبٍ او وطن او فكرة او معتقد... اتخذت هذه الكلمة معنى جديداً في قصتنا، فنحن نضحي بالشيء من اجله ذاته: نضحي بالحب من اجل الحب، من اجل ان يبقى صافياً لا تشوبه شائبة، من اجل ان يبقى كبيراً لا تعرّيه السنون، من اجل ان يبقى دفّاقاً لا تنغصه المشاكل والمصاعب.

ضحينا بنفسينا من اجل كلينا، كيلا يتحول اجمل ما في حياتنا الى كابوسٍ عقيم، يقتلنا بصمت، ويقتل اجزاء الآخر في الآخر. ضحينا بقلبينا لنبقيهما خارج الزمن، يتعانقان من دون ادراك الواقع، كيلا يحزنا وتتفتت الجسور بينهما. ضحيت بها من اجلها وضحت بي من اجلنا...

مرّ شهران من فقدان التواصل وإسكات الكلام، نحاول إكمال

حياتنا كلٌّ على حدة. العقل مرتاح فهذا مراده وتوصيته، والقلب متوقف في مكان آخر بارد، ازرق اللون...

كنت أمسك بهاتفي كلّ ليلة، اكتب لها رسالةً، اعود فأمحوها، اقول لها «تصبحين على خير» وأنام.

كانت الأفكار تجول بي من بدايات الأزمان والأديان، إلى توقعات النهايات والخاتمات، تسري في دمائي الباردة، تبان في الأحداق الواسعة... ثابرت على القراءة، فبالقراءة لا افكر فيها، وبالقراءة أوسّع آفاق عقلي،... وما كنت اقرأ إلا من اجلها!

مرّت اربعة اشهر، حنيني اليها بدأ يذبحني، غيابها ثقيل، والعقل بدأ يتساءل عن قوّة سبب الفراق! بدأ الشك يتغلغل فيه، هو الذي كان اليقين يعبق بأرجائه!

ما الفائدة من البعاد، بل ما السبب المهم منذ البداية! أتضحي بحياتك، بسعادتك، بعشقك من أجل أن يرضى غيرك! أتدمر بيتك بيديك؟! أتترك مقولات عثمانية تكبّلك، تبعدك عن معشوقتك؟ فما فائدة الوعي والإدراك اذاً؟ وما فائدة المعرفة إذا لم تحولها سلاحاً يفتك بالجهل، جهلك أولاً!

«... ومجتمعي؟ وأهلي؟ والباطل المنتشر الذي أضحى «حقاً»؟!».

وما مجتمعك إلا روابط، وإذا كانت الروابط نبعها علم ومصبّها جهل فليست بروابط ولا صداقات بلّ تفاهات قبلية على قاعدة «المسايرة»، وإذا ما أهّل اهلك بقرارك، بسعادتك، أيكونون أهلاً لوظيفةٍ الأهل؟! أما الباطل المنتشر، فقد عرفته، حددته، أتمشي في ظلّه بعدها؟ وإذا مشيت فما فائدة علمك ومعرفتك!؟

إذا لم يقترن علمك بعملك، بقناعاتك، برؤياك فدعك منه ولا

تدّعي فهماً بلّ قل إن هذا القطار يمشي وما انا إلا راكب صغير على متنه، مثلي مثل أيّ مسمار يشدّ هيكله، في الشكل موجود، في القوة موجود ولكن في الفعل عدم، رقمٌ تافه كغيرك من الأرقام. اخترْ ما بين وجودك وعدمك، وقرر سعادتك أو لا تسأل بعد حين لمَ الندم!

نعم يبدو في هذا المنطق منطق!

ولكن، ألم اسأل نفسي قبلاً؟ لمَ هذه النتيجة الآن وعكسها كان في الماضي؟.. السبب واضحٌ جداً، فأنا كنت أعرف قيمتها، ولكني لم ادرك قيمة الحياة معها، بدونها لا قيمة، لا طعم ولا هدف في حياتي، بدونها حياتي ومماتي سيّان!

اقتنع العقل واتخذ قراراً، تلقفته الإرادة، الطريق واضح الملامح الآن. لا يبقى سوى الكلام...

- «مساء الخير يا حبيبتي!».
- «مساء الخير يا عمري».
- «اشتقت اليكِ، وزاد الشوق من وهني».
- «وأنا كذلك يا حبّي الضائع، يا عشقي ويا دفتري السرّي».
- «أتراكِ إذا قلت لكِ إننا سننشر هذا الدفتر على الملأ فلا يعود سريّاً، أتقبلين؟».
- «كيف لا أقبل وهذا حلم حياتي؟ كيف لا أركض وأنت ملعب آمالي؟ كيف لا أصلي وأنت هيكلي الموعود؟ كيف لا أبكي وأنت حلم المستحيل؟!».
- «كيف؟ لم أفهم كلّ ما قلته!».

- «مـرّ الوقـت يـا حبيبـي، أقنعتنـي بالحـب مـن غـير زواج، أمرتني ان احـبّ غـيرك، ابتعـدت عـن خارطتـي، دمّـرت كلّ أمـلٍ صغـير، ردمـت قلبـي بحبـك وعـدت ردمتـه تحـت حماقـات الوهـم، جرّعتنـي دمـوع الفـراق مـرّات عديـدة وبـإرادتي... وتـأتي الآن لتنسـف كلّ مـا قلتـه لي يومـاً وتريـدني في حياتـك، معـك... أجننـت؟».

- «لم أعـرف إلا الجنـون معـكِ، فحبـي كان مجنونـاً، وقـدري كان مجنونـاً، وحيـاتي، آهـاتي، أنفـاسي، كلـماتي... كلهـا كانـت مجنونـة... ولكنـه جنـون جميـل، حلـو المـذاق رغـم المـرارة، سـهل الانسـياب رغـم السـواتر، جنـونٌ يطلـب أن تكـوني معـه حتـى انطفائـه، حتـى انكفائـه عـن الحيـاة، جنـونٌ يريـدك امرأتـه، رغـم المرايـا المتكسّرة في المجتمـع والعقـول، رغـم كسرات الزجـاج الجارحـة.. جنـون يريـدك رغـم البـشر وأفكارهـم ومعتقداتهـم واسـاطيرهم...».

- «ولكنـي لم أعـد اسـتطيع يـا حبيبـي، مـرّ الوقـت تخطانـا الزمـان، لا زلـت أعشـقك بـكلّ جوارحـي ولكنّـي مـا عـدت أقـدر تـرك كلّ الأشـياء لأكـون معـك..».

- «ما الذي تغيّر؟».

- «تغـيّر الكثـير يـا حبيبـي... مـن جهـة تعرفـت خـلال هـذه المـدّة عـلى شـخصٍ جديـد، طيّـب القلـب، يحبنـي منـذ زمـن، أراه دائمـاً، اعتـدت عليـه، لا زلـت غـير قـادرة عـلى النظـر في عينيـه فسـحر عينيـك لا ينـسى! لكنـي بـدأت اعتـاد الأمـر، ومـن جهـة أخـرى أهـلي وأخـوتي... فبـين ان اربحـك وأخـسر العـالم، أو أن أكـون بخـير مـع الجميـع وأخـسرك وأخـسر نفـسي، إني أختـار خسـارتنا رغـم إدراكي بأننـي سـأندم عـلى هـذا القـرار لاحقـاً!...».

- «حسناً، إذا كان هذا اختيارك فما عدت استطيع إضافة شيء آخر... أظنه الوداع الآن؟!... طيّ صفحة من حياتنا والشروع بصفحةٍ جديدة؟!».

- «لا، ليس الوداع. لن أقبل بوداعٍ صوتي، لن أقبل بوداعٍ لا أضحك فيه وأبكي.. لن أقبل بوداعٍ لا أتجرّع طعم حبّي حتّى الاختناق.. ألا توافقني؟ متى ستأتي؟».

- «لا أدري، يا حبيبتي، ولكنّ حباً كهذا يستحق ان نودّعه بشكلٍ أفضل..عشرة أيام وأكون في بيروت».

كنت أظن أن هذا ما سيجري، لم اكن اتوقع ان تعود لترتمي في أحضاني، فقد مرّ الوقت وأنا منقطعٌ عنها، وأنا من رتّب أفكارها في رأسها. لقد قدمتها بيدي على طبقٍ من ذهب الى غيري، لم يعد بالإمكان شيئاً الآن، فلا الندم ينفع ولا الترجّي مقبول.. لقد دمّرت نفسي ودمّرتها، بمنطقٍ سخيف عقيم، من أجل ان اربح نظرة مجتمعٍ مستهلك، يحكمه رعيان طوائف وتسرح قطعانهم فيه.. وحين صحوت من غفوتي كان الحلم قد سبقني وتبدّد.

لم يبقَ إلا الوداع، لحظةٌ سأفكر فيها في الأيام العشرة المقبلة، كي تبقى محفورة في القلب المسكين، في الذاكرة النازفة، في الخاطر المكسور...

نهاية الكلام، نادتني يوماً ولم أذهب اليها، ناديتها اليوم ولم تأتي إليّ، فرق المقاييس والوقت في الحكمين أدّيا إلى موتنا القلبي، علينا أن نحيا ونتحمل مسؤوليات قراراتنا...

الفصل الرابع عشر:

عودة، مفاجأة وضياع

عـشرة أيـام! ليسـت بالوقـت الطويـل، ولكنهـا تكفـي لتحضـير جنـازةٍ لائقـة لقلبـين صغيريـن، كأن الجنـازات يصلـح التفاضـل بينهـا! يجـب أن تكـون التفاصيـل مدروسـة بدقّـة، باهتـمام! لا يجـوز أن أهمـل أي تفصيـلٍ صغـير، لأن هـذه الوداعـات تكـون نهائيـة، لا مجـال للعـودة فيهـا! صحيـحٌ أن مـا يجـري مهزلـةٌ مسرحيـة، ولكـن المشـهد لـن يعـرض سـوى مـرّةٍ واحـدة، وويحـي اننـي الممثـل والمخـرج في آن!

استعدتُ مـن ذاكـرتي كلّ مـا تحـب، وكل مـا تكـره، مـن لبـاسٍ، ألـوان، كلـمات موسـيقى، عطـر... حـضّرت مسرحـاً في خيـالي، كتبـت نصـاً للحـوار وتمرّنـت عـلى كلماتـه مئـات المـرات. أردتهـا ألا تنـسى فراقـاً كهـذا، اردتهـا ان تـودع حبهـا بالضحكـة لا بالدمعـة، بالـسرور لا بالحـزن، بالشـغف لا بالـبرودة. أردتهـا ان تحفـظ في خيالهـا لوحـةً مـن خيـالي ترسـمها لحفيـدةٍ مـا في المسـتقبل كأنهـا تعيشـها لحظتَهـا!

رتبت جميع أشيائي، حضّرت نفسي للعودة، وضعت كلّ ملابسي السوداء في الحقيبة وانطلقت إلى المطار. يسألني صديقي عن الحزن في عيني وأنا عائدٌ الى الوطن! لا يدري ما تحمله هذه العيون في طيّاتها، لا يدري أنني عائدٌ لأحضر جنازةً، حضّرت لها بيدي لنفسي، لا يدري أن وطني يموت حين يموت القلب في وطني!

وصلت مطار أبو ظبي، وعلى غير العادة، مشيتُ بهدوءٍ وتلكؤ، كالذي يغادر سريره صباح يومٍ ثلجيّ! لم أكن مستعجلاً، وقفت في أطول صفٍ وجدته، تمنيّت ان يكون هناك خطأ في أوراقي كي لا أسافر! تمنيت ان اكون في حلمٍ صيفي وأستيقظ عاجلاً! لكن مهلاً، انا حتى الأحلام ما اعتدتها، هذا واقعٌ وعليّ به!

صعدت الى الطائرة، جلست في مقعدي، وضعت مخدّة على الشباك المقفل... أحسست بإقلاع الطائرة فقلت لنفسي «لأنَم، فالسهر القاتل آتٍ!».

حطّت الطائرة في مطار بيروت، أتت المضيفة إليّ قائلةً «لم يبق سواك، الا تريد ان تنزل؟!». تبسّمت ووقفت متجهاً ناحية الباب، خائف، مرتعب، أسأل نفسي لم انا هنا؟ لماذا عدتُ؟ مشيتُ والشرود يرافقني، أعطيت اغراضي لأول سائق أجرة صادفته واتجهنا صعوداً. راقبت أضواء الشوارع الحزينة، الهادئة، سكونٌ تام قطعه اتصالٌ من أختي تقول لي إنها لا زالت تنتظرني في المطار! خجلتُ من حنانها وعمى بصيرتي فقد نسيت تماماً أنها تأتي دائماً لتقلّني!

وصلت، بمشهدٍ متكرر، الى قريتي، مع إطلالة الفجر الأولى، لم يلفتني شيء هذه المرّة، كأنني فقدت حنيني للأشياء، او ما عدت أعرفها... ركن السائق السيارة امام بيتنا، لاقتني دموع أمي

الفرحة، قابلتها بالغمرة ودموع الحزن، وما كان من عيني الدمع قبلاً! جلسنا قليلاً، سألتني عن الهموم في مقلتي، فأجبت بأنه إعياء السفر والسهر، وهربت من أسئلتها وخوفها الى مخدعي خوفاً عليها من همٍ ليست بحاجته! استسلمت للنوم والتنهّد وصحوتُ على صراخ أختي وتأنيبها بعد قليل، ما لبث ان تحوّل غضبها الى حنانٍ وبسمة تنشلاني مما انا فيه قليلاً.

أمضيت ذلك النهار أتصنّع السرور والبسمة، فحقّهم عليّ أن أكون سعيداً... مضى النهار وأقبل ليله.

- «مساء الخير، صغيرتي».

- «مساء الخير يا حبيبي وروحي! الحمد لله على سلامتك، وصلت اليوم أليس كذلك؟ اشتقت اليك كثيراً».

- «أوّدّ أن أبقيكِ العمر كله مشتاقة، وأبقى العمر كله دون وداعك!».

- «لا، يجب أن أراك، علينا أن نتحدث».

- «حسناً، أين ومتى؟».

- «أنا متعبة هذه الفترة، وألازم المنزل في القرية، تعال عندنا أعرّفك بأهلي ونتحدث بهدوء».

- «أنا لست ذاهباً لزواجك بل لوداعك! ماذا تراني أفعل عند أهلك؟ ..لا، لا اريد ان اذهب إلى هناك».

- «أقول لك إني متعبة، لا استطيع الخروج من المنزل!».

- «حسناً، ننتظر لتصبحي أفضل ونخرج سوياً ونتحدث..».

- «.. ولكن..».

- «من دون لكن. ليس لي مكانٌ او عملٌ هناك، لا أريد ان

اذهــب».

- «كــم أصبحــتَ فظــاً، لا عهــد لي بــك كذلــك، أنــا مريضــة واحتــاج أن أراك، وانــت لا تريــد!؟ صحيــحٌ انــك آتٍ لوداعــي، لكــن حبنــا لا زال كــما هــو، أقلّــه، بالنســبة لي فــلا تشــوهه أرجــوك».

- «لســت أشوّهه، ولن أزعلك ايضاً، سـأذهب غداً صباحاً».

- «حبيبي».

كان المفـترض والطبيعـي أن أذهـب إلى بيتهـا لأطلـب يدهـا، ولكـن هـذا الحـب المجنـون أبى إلا ان نمـرّ بـكل المراحـل ولكـن بطريقتـه! كان يجــب ان اذهــب بصفتــي حبيبهــا، خطيبهــا! الآن انــا ذاهــب بصفــة صديــقٍ قديــم، سـيتعرّفون عـليّ ويودّعوننـي في الزيـارة نفسـها، ومـا ذاهــبٌ انــا إلا للــوداع!

سـخافة قـدر او سـخرية زمـان، او تلاعــبٌ كـوني! سـمّه مـا شـئت، لكنّــه ذبــاحٌ اذا مــا مــر بــين العقــل والقلــب، فــلا العقــل يقبلــه ولا القلــب قــادرٌ عــلى الإحســاس بــه، فيبقــى بينهــما يهتــك الأوردة وينحــر بالأوجـاع والآهـات!

اسـتيقظت في الصبـاح التـالي، قمـت بالأمـور المعتـادة، توجهـت الى قريتهـا. الجـو صـافٍ مـع بعـض النسـمات البـاردة، مـررت بالسـهول فــإذ بهــا مخــضرة، بالنهــر عــلى جانبــي الطريــق فــإذا بــه هــادئ، أصــوات عصافــير ترنــدح في الأجــواء، كأن الطبيعــة تحــضّر لعــرسٍ مــا! أتــرى هــذه المجنونــة قبلــت بي وتريــدني أن أذهــب لبيتهــم لتفاجئنــي بالجــواب؟ قــد تقــوم بذلــك فأنــا أعــرف عشــقها المجنــون، ولمــاذا في المنــزل؟! لم تقــل إنهــا مريضــة ســوى بالأمــس! ومــا شــأن اهلهــا بوداعنــا؟ ام تُراهــا لا تريــد ان نكــون وحدنــا! لا، لا يمكــن ذلــك فهــي

تعـرف حبـي لهـا كيـف يقـزّم كل شيء آخـر! أسـئلة محـيّرة، رسـمت عـلى شـفتي بسـمةً افتقدتهـا في وحـدتي منـذ حـين! وكأني أزيـد سرعـة السـيارة لأصـل اليهـا!

وصلـت الى منزلهـم، هنـاك شـخصٌ في سـاحة الـدار، أظنـه والدهـا! تقدمـت وعرّفـت بنفـسي، صديـقٌ قديـم مـن ايـام الجامعـة! كان فعـلاً والدهـا.

- «كيـف حالك يا بني؟».

- «الحمـد لله، ووأنت؟».

- «نعيـش بهـدوء، بوتـيرةٍ بطيئـة نسـبياً، الحيـاة في القـرى بسـيطة، كـما تعلـم».

- «نعم، لكنني مسـافرٌ منذ سـنوات وقد غفلت عن هذا».

- «نحـن نعـرف اصدقـاء ابنتنـا جميعهـم، وحـين أخبرتنـا أنـك آتٍ اليـوم تفاجأنـا قليـلاً! كيـف لم تزرنـا قبـلاً؟».

كانـت عينـاه الثاقبتـان تنظـران الى عينـي محاولـةً سـبر مـا وراءهـما، فهـذا العجـوز يملـك مـن الفطنـة وحسـن اختيـار الأسـئلة مـا مجموعـه خمسـة او سـتة عقـود مـن الحذاقـة!».

- «كنـا سـوياً في الجامعـة، وافترقـت دروبنـا خـلال الحـرب، سـافر كلانـا، لكننـا بقينـا عـلى صداقتنـا! واليـوم لـديّ صديـقٌ في القريـة التاليـة إنّي آتٍ لزيارتـه، وحدّثـت نفـسي بالمـرور عليكـم للسـلام!».

- «أهـلاً وسـهلاً بـك، اعـذرني عـلى سـؤالي، لكننـا مـا عدنـا نتلقـى الكثـير مـن الزيـارات هـذه الأيـام، تفضّـل اشرب قهوتـك، أخذنـا الحديـث أرجـو الا تكـون قـد بـردت!».

لم يعـرف أن مـا بـرد هـو الخـوف المحجـوب في عينـي! لم احسـبه

بهـذه الحذاقـة، حتّـى كلماتـه كانـت مبطنـة المعـاني، هنـاك شيء غريـب يـدور مـن حـولي! ثـم ايـن هـي؟ لمـا لم تخـرج الى الآن؟ أأسـأله عنهـا؟ ام انتظـر لتخـرج بنفسـها او يناديهـا! هـذا العجـوز الفسيفسـاء شـيفرةٌ تحتـاج وقتـاً لفكّهـا!

- «قـم معـي الى الداخـل لتسـلّم عـلى صديقتـك، فهـي لا تسـتطيع الخـروج الآن!».

وقفـت معـه، مشـيت وراءه، لم أحسـبها مريضـة لدرجـة ملازمـة الفـراش! دخلنـا الى غرفتهـا، هـي مسـتلقية عـلى سريرهـا، ضفائرهـا السـوداء تتـدلى عـلى قميـصٍ ابيـضَ قطنـي، تبسّـمت ودعتنـي للجلـوس عـلى كـرسي بجانبهـا ثـم نظـرت الى والدهـا فاسـتأذن بغصّـة مـا لمحتهـا في مقلتيـه قبـل الآن!

- «حبيبتـي، ما بك يـا صغيرتي، مما تعانين؟».

- «أعـاني مـن القـدر يـا حبيبـي، مـن الزمـن، مـن غـدر الأيـام، مـن العمـر الذابـل، مـن الانتظـار والوحـدة، مـن اشـكال الجـدران، مـن حريـة الطيـور في النافـذة، مـن لـون الشـمس... أعـاني مـن كل الأشـياء».

- «مـا بـكِ! لمَ هـذا التشـاؤم. لا أعهـدك مستسـلمة، تحـلّي بالصـبر، فغـداً تشـفين مـما بـك، ثـم مـا بـك لم تقـولي لي!».

- «أنخـرج الى الحديقـة قليـلاً، لقـد مللـتُ الجـدران»، ونـادت أمهـا!

- «حسـناً، هيا بنا».

دخلـت أمهـا تجـرّ أمامهـا كرسـيّاً مدولبـاً! نظـرت اليهـا ثـم الى الكـرسي ثـم إليهـا وأعـدت النظـر إلى الكـرسي، لم افهـم للحظـات لمَ هـو

هنا، لم أقدر على استيعاب المشهد بسرعة، فلو كان لأمها لما جرّته أمامها، ولو لأبيها،... يا إلهي!

نظرت الى حبيبتي الملقاة في الفراش، بادرتني بدمعة على خدّها، وأنين خافت عميق.

- «ساعدني لأجلس في الكرسي، ولنخرج للحديقة!».

تسمّرت في مكاني من شدّة الدهشة، آلاف الصور والأحاديث جاءت في اللحظة نفسها وعصفت بي، مئات الأسئلة تدافعت نحو الوجع في الرأس والحيرة، كيف، متى ولماذا؟!

هممتُ أن أسألها فأسكتتني دمعةٌ أخرى على خدّها الآخر، كأنها تدرك ما يحصل في سطور خواطري وتعطي لكلّ نظرةٍ مني دمعةً منها!

تساعدنا وأمها الحزينة لوضعها في كرسيها، وخرجت أمشي بجانبها الى الحديقة، لم تقبل أن أجرّ الكرسي أمامي، فيداها تستطيعان ذلك!

جلسنا تحت شجرة الصنوبر العتيقة، في واحة ذكرياتها، على كتف تلّ رملي، هي في كرسيها وأنا في حيرتي وقلقي، ما لبثت أن نظرت اليّ وأمسكت بيدي لأجلس قربها.

- «كيف حصل هذا؟ لما لم تقولي شيئاً، كيف أخفيت عنّي أمراً بهذه الأهمية؟».

- «بعد حادث السير، شخّص الأطباء حالتي بشللٍ نصفي، لم أرد إخبارك بالأمر نهائياً، لأنني ظننت أننا سنفترق كما كنت تقول دائماً، فأخفيت الأمر عنك، ولاحقاً حين ابتعدنا لفترةٍ من الزمن، ظننت أن دروبنا لن تتلاقى مجدداً وإذا تلاقت فيكون ذلك

بعد أعوامٍ طويلة، حينها تكون «الفاس قد صدأت فلا تجرحني بداخلك او تجرحك بداخلي! ثم عدتَ إليّ بطلب الزواج الغريب ذلك، مما اضطرني أن أكذب عليك وأوهمك بوجود شخصٍ في مكانك، وبأن حبي قد خفتَ واضمحلّ... ولكني بعدها لم اقدر على النوم وأنا أكذب على الحقيقة الوحيدة في حياتي، فارتأيت أن أدعك تعرف منّي حين تراني، أردت أن أنظر في عينيك، أن أرى اذا كانت ستتوهّجان كعادتها، اذا كانت ستبرق بالحب او بالشفقة، اردت أن أراك تراني لأقرأك في تعابير وجهك!».

- «وماذا قرأت؟».

- «لا شيء! فقناع الحيرة يخفيك عني!».

- «سأدعك تشعرين بما لم تستطيع قرأته!».

اقتربت من وجهها، أقبلت على رحيق شفتيها الناعسة، طبعت جمرة عشقٍ قد تخمّر، بطعمٍ نبيذي ابيض، بصفاء وجهٍ نوراني يتبسّم لملاك، بهدوء الماء في راحة الحجارة، بشغف العاشق الولهان.. وابتعدت ببطء، بدأ الهواء البارد يداخل أنفاسي! سافرت في عينيها وشردت، ردّني ترقرق دمعتين وشفاهٌ مبتسمة.. ثار الفرح في جسدها المتعب، ضمتني إليها وهمست:

- «لو أحسستُ بشفقةٍ في ريقك لكرهتك مدى العمر المتبقي!».

تراجعت بعد قليل، جعلت ركبتي مرتكزاً لجسدها امامها، وهممت لأتكلم فأسكتتني.. وقالت:

- «لا تتكلم، لا تقل شيئاً، اتركني بسعادتي واذهب! لم تكن إلّا صادقاً ومحبّاً لي، ولا أريدك الا عاشقاً، لا أريدك بأي صفةٍ

أخرى. لم يعد بإمكاننا ان نكبر معاً، سأعود لحبّ الصورة كما في الماضي، وستبقى حبيبي الأوحد، وحبّي الأبدي».

- «ولكن انا».

- «لا تقل شيئاً ارجوك! لا تقتل لحظاتي الجميلة فقد باتت نادرة على سرير حياتي، لقد أعطيتني من حبّك ما يكفيني عقوداً، فأمض الآن واتركني صورةً على كرسي في كوخنا القديم، تذكرني وأنا منتصبة القامة بقدّي الممشوق، برشاقة الطفولة، تذكّرني كما كنت، لا تقتلني في ذاكرتك مرتين، دعْها لي، أركض فيها إليك، معك، أجعلها حياتي وأملي ومصدر قوتي.. لقد كفنتني هذه الحياة بأيامها، فاتركني أحيا هناك آمنة مطمئنة، اذهب الآن، لا تقلْ شيئاً بحبي لك، ولا تنسَ ما قلته لك!»

- « حبيبتي».

- «أنت حبيبي، إذهب، ولا تعد، إني أتوسّل نفسي بك، فأنا أعلم كم أملك فيك!».

قالت كلمتها وأدارت بوجهها الناحية الأخرى للوادي، نظرت إلى جدائلها السوداء المتكئة على كتفٍ وكرسي، سمعت تنهداً غائراً في السمع.. كلّ شيء يدفعني لأعود ناحيتها، لكنّ كبرياءها يمنعني، أحسست بالشلل أمامها، فوقفت واتجهت الى السيارة، طأطأت أمها على رأسي حين مررت مكسوراً بجوار باب البيت، وخنقت دموعها وقالت:

- «لا تقلق، ستتعالج وتعود كما كانت، لا تقلق، لا تقلق..».

وضمّتني إليها كما تضم ابناً غالياً، وما عرفتني إلا منذ لحظات، بكت دموعها ودموع ابنتها على ثيابي، وأطلقت العنان لأنين وجد

بـين أضلعـي صـداه، أخبرتنـي برعشـة يديهـا عـن المعانـاة والأوجـاع والسـهر والأرق والليـالي الطـوال البـاردة المظلمـة، دكّـت كلّ قطـرة دمٍ في كيـاني وزعزعـت مـا تبقـى مـن قـوّةٍ في عينـي عـلى الدمـع.. ضممتهـا لأضـمّ أوجـاع ابنتهـا بـين يـدي، لأحـس بمـا فاتنـي، لأجـد كل شـعورٍ هـاربٍ وكل غصّـة عزفـت عـلى الخـروج ومـا اسـتطاعت... قبلـت جبـين تلـك العجـوز وقلـت لهـا آلاف الأشـياء بنظـراتي، فكفكفـت دموعهـا بكبريائهـا بعـد أن أراحـت كاهلهـا ولـو لقليـل وأدارت وجههـا وذهبـت الى ابنتهـا...

تركـت قلبـي عـلى ذلـك الـتراب الجنـوبي، وتسـاقطت المشـاعر منـي مـع كلّ خطـوة كنـت أخطّهـا عـلى أرض تلـك الـدار، حتّـى وصلـت خـالي الوفـاض الى بـاب السـيارة، نظـرت إليهـا في مكانهـا علّهـا تديـر وجههـا قليـلاً، فلفحتنـي حـرارة دمعـةٍ انسـكبت عـلى خـدّي قائلـةً لي «ارحـل»... تبسّـمت، فهـذه الفتـاة كانـت وسـتبقى «مُنـايَ».

***

الفهرس

الإهداء.. 7
المقدمة 9
الفصل الأول: الأمس.. 11
الفصل الثاني: الوداع الأول 17
الفصل الثالث: في الغياب. 21
الفصل الرابع: العودة 23
الفصل الخامس: ما لم يُقَل... 29
الفصل السادس: حب وفراق ثانٍ!. 33
الفصل السابع: بين العاصمتين!.. 39
الفصل الثامن: أحاديث المستقبل 49
الفصل التاسع: الانتظار. 59
الفصل العاشر: العودة واللقاء 63
الفصل الحادي عشر: حيرة المنفى 71
الفصل الثاني عشر: الفراق المتكرر 75
الفصل الثالث عشر: هجرٌ وعودة ونكران 79
الفصل الرابع عشر: عودة، مفاجأة وضياع 85

بين مسارب الأقدار ساقيةٌ تجري،
فيها انطفأ الواقع وانتفى المنطق،
تراها على هواها تترنح...
بين قطراتها قصص غريبة،
أسرار، أساطير وحكايات....

فايز غازي .عين عطا
6 شباط 1986

يعمل مصمماً بيانياً في ابوظبي،
الإمارات العربية المتحدة،
يمارس التصوير هوايةً، وله مقالات أدبية، نقدية
وسياسية عدة منشورة.

"مُنايَ"، اولى تجاربه في الرواية.